ك. غ. يونغ

الدين في ضوء علم النفس

ترجمة وتقديم
نهاد خياطة

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الدين
في ضوء علم النفس

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الاولى ١٩٨٨
العربي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق: ص. ب ١٢٧٧٩

ك.غ. يونغ

الدين
في ضوء علم النفس

ترجمة وتقديم

نهاد خياطة

طبع في مطابع ... العلم ٣ / ٢ / ١٩٨٨

التنضيد الضوئي :

مكتب الفيحاء ـ دمشق

[illegible]

[illegible]

الغلاف : الفنان يحيى الشيخ

مقدمة المترجم

يضم هذا الكتاب ثلاث محاضرات كان القاها ك. غ. يونغ في جامعة «يال» بالولايات المتحدة الاميركية في عام ١٩٣٧، تلبية لدعوة كان تلقاها كإمام المدرسة التحليلية بغية تناول المسألة الدينية من زاوية علم النفس التحليلي الذي يميزه عن الرائدين الآخرين: فرويد وآدلر.

المحاضرة الاولى، وكانت بعنوان «استقلالية الخافية أو اللاشعور»، ركّز فيها المحاضر على المخاطر التي تنجم عن اهمال الجانب غير العقلي من النفس البشرية والاقتصار على الجانب العقلي وحده، مما يخل بتوازن بنية الإنسان النفسية، معرضاً إياه للأمراض النفسية وفي مقدمتها: العصاب.

والمحاضرة الثانية، وهي بعنوان «الدغماطيقا والرموز الطبيعية»، يميط فيها يونغ اللثام، في جملة اشياء أخرى، عن ظاهرة «الصوت» الذي يرشد الإنسان، وهو في الحلم، الى سلوك طريق

الصواب، بما تتمتع به الخافية احياناً من «ذكاء وغائية تفوق ما لدى الواعية منهما»، مؤكداً ان هذا «الصوت» ما هو بصوت صاحب الحلم لانه غير آتٍ من قبل واعيته، بل من قبل الخافية التي لا سيطرة له عليها. وفي هذا ما يكشف لنا عن «سرّ الوحي» الذي كان يتلقاه انبياء التوراة وغيرهم، حين كان الحلم هو «كلمة الله».

وفي المحاضرة الثالثة وهي بعنوان «رمز طبيعي: تاريخ وسيكولوجية»، يتعرض يونغ لرمزية «المنْدلة» (وهي كلمة سنسكريتية معناها الدائرة السحرية) التي تطلقها خافية الانسان على هيئة اشكال دائرية او كروية، تتداخل احياناً مع الرباعي، وكانت ترمز للألوهة في فلسفات القرون الوسطى والديانات العرفانية (الغنوصية)، هذه الرمزية لم يعد لها وجود في ثقافة الانسان الحديث او في معتقداته وفلسفاته، لكنها مع ذلك ما برحت تظهر في احلامه من حيث ان ما كان، في وقت ما، في واعية السلف ما يلبث ان يهرب الى خافية الخلف وينبعث ثانية في احلامهم؛ وهو ما يشبه، من بعض الأوجه، قانون حفظ الطاقة في الفيزياء.

وقد ضمّن يونغ هذه المحاضرات الثلاث شرحاً مفصلاً لأكثر مصطلحات علم النفس التحليلي كالكبْت Repression، والكبْح Suppression، والنماذج البدْئية Archetypes، والواعية Consciousness، والخافية Unconscious، والأنيم Animus والجانب

---

* انظر «علم النفس التحليلي» بترجمتنا، دار الحوار - اللاذقية، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٨٥، ص٢٩٩.

- المترجم -

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

المذكر في الأنثى)، والأنيمة Anima (الجانب المؤنث في الرجل)، والإسقاط Projection وآلية انكفائه.

استقلالية الخافية (اللاشعور)

لمّا انعقدت نيّة القائمين على محاضرات «تاري» على إتاحة الفرصة لرجالات العلم والفلسفة وغيرهما من مجالات المعرفة البشرية الأخرى للإسهام في بحث المسألة الدينية، ومنحتني جامعة «يال» شرف إلقاء محاضرات «تاري» لعام ١٩٣٧، رأيت من واجبي أن أبين العلاقة القائمة بين علم النفس والدين، أو بالأحرى، بين الدين وذلك الفرع الخاص من الطب النفسي الذي أمثله، أو أن أبين ما يقال فيه حول هذا الموضوع.

مما لا مراء فيه أن الدين هو من أقدم أوجه نشاط العقل البشري وأعمها شمولاً. ومن البديهيات الأمور ألا يستطيع نوع من أنواع العلوم النفسية التي تمت بسبب إلى بنية الإنسان السيكولوجية أن يضرب صفحاً عن الرأي القائل بأن الدين شأن شخصي ذو أهمية كبيرة في نظر الكثيرين، بالإضافة إلى كونه ظاهرة اجتماعية أو تاريخية بالنسبة

وبالرغم من انني كثيراً ما أدعى فيلسوفاً، الا انني امرؤ تجريبي وانطلق من موقف ظاهراتي بحت، وإني لعلى يقين من ان مبادىء التجريبيّة العلمية لا تتعارض وما يقوم به المرء اتفاقاً من تأملات معيّنة تتجاوز مجرد جمع الاختبارات وتصنيفها. بل إني لأذهب الى ان الخبرة غير ممكنة من غير تأمل؛ ذلك لأن «الخبرة» سياق من التمثل لا يمكننا الفهم بدونه. و، كما تدل عليه هذه الإبانة، لسوف أعمد إلى تناول القضايا السيكولوجية من منطلق علمي، لا فلسفي. وبما ان للدين جانباً سيكولوجياً عظيم الأهمية، لقد تعيّن عليّ ان اتناوله من وجهة نظر تجريبية بحتة ـ اي ان اقتصر على ملاحظة الظاهرات وأمسك عن الأخذ بالاعتبارات الميتافيزيقية والفلسفية. انا لا انكر ما للاعتبارات الأخرى من قيمة، الا انني لا أستطيع الادعاء بأني قادر على تطبيقها تطبيقاً صحيحاً، وإني لأعلم ان معظم الناس يزعمون انهم يعرفون كل ما يلزمهم معرفته عن علم النفس، ظناً بأن هذا العلم ما هو غير ما ما يعرفونه عن أنفسهم. لكنني أظن ان علم النفس اكثر من ذلك بكثير. وبينما لا يتصل علم النفس بالفلسفة الا بسبب ضعيف، نجده وثيق الصلة بالوقائع التجريبية التي لا يمكن الوصول إليها في يُسْر عن طريق الخبرة العادية. وقد عقدت العزم في هذا الكتاب على إعطاء بضع لمحات على الأقل عن الطريقة التي تقف فيها السيكولوجيا العملية وجهاً لوجه امام المسألة الدينية. وبديهي ان يتطلب اتساع المسألة أكثر من ثلاث محاضرات، لما يحتاجه البرهان المستند الى التفصيل الملموس من وقت وشرح كثيرين. وعلى هذا، سوف يكون الفصل الأول نوعاً من المدخل الى صلب مسألة السيكولوجيا العملية والدين، والفصل الثاني متصلاً بالوقائع المؤيدة

لوجود وظيفة دينية أصلية قائمة في الخافية (اللا شعور). اما الفصل الثالث فيتناول الرمزية الدينية الناجمة عن سياقات الخافية.

وبما أنني في سبيل ان اعرض مناقشة غير معتادة نوعاً، لا يسعني الافتراض بأن الجمهور على معرفة تامة بالمنطلق المنهجي لذلك النوع من علم النفس الذي امثله. هذا المنطلق هو منطلق ظاهراتي حصراً، اي انه يُعنى بالحوادث والخبرات ـ بكلمة واحدة، بالوقائع، وتقوم حقيقته على الوقائع لا على الأحكام. فحين يتحدث علم النفس عن الولادة العذرية مثلاً، لا يُعْنى الا بواقع وجود مثل هذه الفكرة، دون ان يتطرّق الى مسألة كون هذه الفكرة صحيحة أو خاطئة. فهذه الفكرة صحيحة سيكولوجياً من حيث إنها فكرة موجودة. والوجود النفسي وجود ذاتي بمقدار ما تخطر الفكرة على بال انسان واحد، وهو وجود موضوعي بمقدار ما يترسّخ في المجتمع ـ بإجماع الناس عليه.

هذه النظرة هي نفسها التي نجدها في العلوم الطبيعية. فعلم النفس يبحث في الأفكار والمضمونات العقلية الأخرى، كما يبحث علم الحيوان مثلاً في مختلف انواع الحيوانات. الفيل حقيقة لأنه موجود. يضاف الى ذلك ان الفيل ما هو باستنتاج ولا إبانة ولا حكم ذاتيّ يصدر عن مبدع. انه ظاهرة. لكننا اعتدنا على فكرة مفادها ان الحوادث النفسية هي نتاج إرادة وتحكّم، لا بل اختراعات بشرية. ولقد بلغ منا هذا الاعتياد مبلغاً بتْنا معه غير قادرين على التحرر من النظرة المنحازة القائلة بأن النفس وما فيها من مضمونات ما هي الا اختراع تحكّمي نحن أوْجدناه، او هي نتاج مضلّ نشأ بعضه عن الافتراض والحكم. والحق ان افكاراً معيّنة تكاد توجد في كل مكان

وفي كل زمان، وهي قادرة على ان تخلق نفسها بصورة تلقائية، وفي معزل عن النقل والانتقال والتعليم، فهي مثل الافكار التي لا يصنعها الفرد بل تحدث له، حيث تفرض نفسها على وعيه فرضاً مثلما هي الافكار في الفلسفة الافلاطونية. وان علم نفس تجريبي يهتم بهذه الظاهرة ...

ويبدو ان الغموض الذي يكتنف هذا المفهوم يتطلب منا ان نحدد المعنى الذي نقصده بهذه الكلمة، فالدين، كما تدل عليه الكلمة اللاتينية RELIGIO، مراقبة دقيقة وملاحظة لما اطلق عليه رودولف اوتو اسم النيومنوزم NUMINOSUM، اي وجود او اثر ديناميكي غير ناشيء عن فعل ارادي تحكمي، بل هو على النقيض من ذلك يستولي على الذات البشرية ويخضعها لسلطانه، فتكون دائماً ضحيته اكثر منها خالقة له. فالنيومنوزم حالة غير ارادية من الذات، كائناً ما كان سببها. ان التعليم الديني يفسر هذه الحالة في كل زمان ومكان بانها خارج عن الانسان. فالنيومنوزم اما ان يكون وصفاً لموضوع مرئي، واما ان يكون حضوراً غير مرئي يحدث في الوعي تغيراً فعلياً خاصاً.

هذه هي القاعدة العامة على الاقل ...

... على ان هنالك بعض الاستثناءات، وذلك عندما يتعلق الامر بالممارسات الدينية والطقوس، فهنالك كثير من الممارسات الدينية تجري بقصد الوصول الى غاية وحيدة هي احداث اثر النيومنوزم بالارادة، وذلك بالتوسل بوسائل معينة ذات طبيعة سحرية، كالدعاء، والتعويذ والتقديم والقرابين والتأمل، وغير ذلك من رياضات اليوغا وتعذيب النفس بمختلف اساليبه، وما الى ذلك. لكن الايمان الديني بوجود علة الهية موضوعية خارجية ...

...

دائماً على مثل هذه الممارسات. فالكنيسة الكاثوليكية، مثلاً، تمنح المؤمن بركة الأسرار المقدسة ابتغاء نقل بركتها الروحية إليه. لكن، بما أن هذا العمل قد يبلغ مبلغ قسر حضور النعمة الإلهية بواسطة إجراء سحري لا يرقى إليه شك، كان من المنطقي أن يأتي الاعتراض بأن ما من أحد يسعه قسر النعمة الإلهية على الحضور في فعل القربان المقدس. والحق أنه لا بد لها من الحضور من جهة أن القربان المقدس مؤسسة إلهية ما كان الله ليقضي بتأسيسها لو لم يكن يبتغي تأثيرها.

يبدو لي أن الدين موقف خاص يتخذه العقل البشري، يمكن صياغته بما يتفق مع الاستعمال الأصلي للاصطلاح: RELIGIO، أي أنه اعتبار ومراقبة يقظة لعوامل ديناميه معينة، تعرف بالقوى أو الأرواح أو العفاريت أو النواميس أو المثل العليا، أو أي اسم آخر أعطاه الإنسان لمثل هذه العوامل على النحو الذي وجدها في عالمه من قدرة أو خطر أو عون بما يكفي لأخذها بالاعتبار الشديد، أو من عظمة أو جمال أو معنى بما يكفي لأن يعبدها ويحبها بإخلاص. في اللغة الدارجة كثيراً ما نقول عمن شغفته حباً حرفة معينة: انه «منكب دينياً» على موضوعه. ويلاحظ وليام جيمس، مثلاً، أن رجل العلم هو في الغالب رجل لا يؤمن بدين، لكنه «ذو طبيعة دينية».

بودي أن أوضح أن «الدين» غير المعتقد. غير أن الأمر الصحيح، من ناحية، هو أن كل اعتقاد فإنما يقوم أصلاً على أساس من اختبار النيومنوزم، ويقوم، من ناحية أخرى، على الولاء والتصديق والثقة بأثر نيومنوزي جرى اختباره بصورة محددة وبما أحدثه من تغير لاحق في الواعية: وما اهتداء بولص إلا مثال صارخ على ذلك.

وبذلك يمكننا القول ان «الدين» هو الاصطلاح الذي يعيّن الموقف الخاص بالواعية التي تغيرت باختبار النيومنوزم.

وأما المعتقدات فهي صيغ للخبرة الدينية الأصلية مكتوبة ومصوغة في قالب من «الدغماطيقا»، وفي العادة تغدو محتويات هذه الخبرة متجمدة في بنية صلبة، محكمة في غالب الأحيان. كما تغدو ممارسة الخبرة الأصلية، واستعادتها، طقساً ثابتاً ومؤسسة لا تتغير. لكنّ هذا يجب الا يعني تحجراً فاقد الحياة. بل ـ على العكس ـ قد يدوم شكل الخبرة الدينية على مدى اجيال الملايين من الناس من دون ان تنشأ ضرورة حياتية لأحداث تغييرات فيه. وبرغم ما يُعاب على الكنيسة الكاثوليكية من جمود فيها، إلا انها تسلم بأن للعقيدة حياتها، وبالتالي قدرتها على تحمل التغيير والتطوير. زد على ذلك، ذلك العدد غير المحدود من العقائد الذي يمكنه ان يزيد مع الأيام. وما يصح على العقائد يصح ايضاً على الطقوس. لكن تظل مع ذلك جميع هذه التغييرات والتطويرات محصورة في نطاق الوقائع التي جرى اختبارها اصلاً، وبذلك تنطوي على نوع خاص من المحتوى الدغماطيقي والقيمة العاطفية. حتى البروتستانتية، التي استسلمت على ما يبدو الى تحرر يكاد لا يحد من التقليد الدغماطيقي والطقس المدوّن حتى انقسمت الى اكثر من اربعمائة تسمية، تجد نفسها على الأقل ملزمة بأن تبقى مسيحية، وأن تعبر عن نفسها في إطار الاعتقاد بأن الله تجلّى في المسيح، الذي تألم في سبيل البشر. فهذا إطار محدد، ذو محتويات محددة، لا يمكن ان يأتلف مع الأفكار والعواطف البوذية او الإسلامية، او ان تكون هذه تكملة له. ومن المسلّم به ان الظاهرات الدينية لا يمثلها بوذا او محمد او كونفوشيوس

او زرادشت من دون غيرهم، وإنما يمثلها ايضاً امثال مثراس وأتيس وكيبيل وماني وهرمز وسواهم كثير من اصحاب الأديان الغريبة.

ومما يجب على العالم النفساني، من حيث اتخاذه موقفاً علمياً، هو ان يصرف النظر عن دعوى كل معتقد بأنه هو الحقيقة الوحيدة الأبدية، فأنا، بوصفي طبيباً ومختصاً بالأمراض العصبية والعقلية، لا أنطلق من معتقد، بل من سيكولوجية الانسان المتدين HOMO RELIGIOSUS، الإنسان الذي يأخذ في اعتباره عوامل معينة ويراقبها مراقبة يقظة، تلك العوامل التي تؤثر فيه وفي حالته العامة. اذ من اليسير علينا ان نعمد الى تسمية تلك العوامل وتحديدها استناداً الى المأثور التاريخي والأنثرو- بولوجي، اما ان نفعل ذلك من منطلق سيكولوجي فأمر على غاية من الصعوبة. وما استطيع الإسهام به في المسألة الدينية مستمدّ كله من خبرتي العملية مع المرضى، ومع من يمكن تسميتهم بالأصحاء. ولما كانت خبرتنا مع الناس تعتمد اعتماداً كبيراً على ما نفعله بهم، كان من غير الممكن رؤية طريق آخر أمضي فيه الا طريق عرض فكرة عامة عن الخط الذي اتخذته لنفسي في عملي الحرفي.

بما ان كل عُصاب متصلٌ بأعماق حياة الإنسان الداخلية، فإننا نجد دائماً شيئاً من التردّد عندما يكون على المريض ان يقدم لنا حساباً كاملاً عن الظروف والتعقيدات التي أدّت به أصلاً الى حالته المَرَضية. لكن، لماذا لا يستطيع ان يتكلم بحرية؟ لماذا يخاف، او يخجل، او يحترس؟ لأنه «يراعي يقظاً» عوامل خارجية معينة تكوّن ما نسمّيه الرأي العام او دواعي الاحترام او السمعة. لكنه حتى حين يولي الطبيب ثقته ولا يعود يخجل منه، يظل محجماً بل خائفاً على نفسه اشياء معينة،

كما لو كان خطراً عليه ان يغير نفسه. والمريض في العادة يخاف من اشياء تبدو له فائقة القوة. ولكن هل في الإنسان شيء أقوى من نفسه؟

يجب الا ننسى ان كل عصاب انما يعني قدراً مطابقاً من هبوط في المعنويات. فبمقدار ما يكون الإنسان مغلوباً يكون فاقداً لثقته بنفسه. والعصاب هزيمة مذلة. والذين يشعرون به كذلك هم أناس لا يجهلون السيكولوجيا جهلاً تاماً. والمعصوب مهزوم من شيء غير حقيقي. ولقد عهد الأطباء منذ زمن بعيد الى طمأنة المريض بأنه لا يشكو من (مرض القلب) حقيقي، وأن الأعراض البادية عليه اعراض وهمية. لكنه كلما اعتقد انه موهوم، شاع شعوره بالخطر على جميع كيانه. ثم تجده يقول: «ان كانت اعراضي وهمية فمن اين تجيئني هذه الاوهام المحيرة؟ ولماذا اعاني من هذا الاضطراب الكامل بعد والحق انه من الأجدر ان ندعو الى الشفقة من نجد إنساناً ذكياً يؤكد لك بما يشبه الفزع انه يشكو من سرطان معوي، لكنه في الوقت نفسه يعلن في صوت خافت خفوت القنوط انه عالم بأن سرطانه مجرد قضية وهمية.

لذلك فإن مفهومنا المادي التقليدي عن النفس في الحالات العصابية خصوصاً: فلو كان للروح جسم لطيف، لقلنا ان هذا الجسم الهوائي او الدخاني يشكو من سرطان حقيقي، وإن كان سرطاناً هوائياً، بنفس الطريقة التي يكون فيها الجسم المادي الكثيف خاضعاً لعلة مماثلة، ولكان هناك شيء حقيقي على الأقل. لذلك يشعر الطب الجسماني بنفور شديد من كل ما له صلة بالطبيعة النفسانية، وعنده إما ان يكون الجسم مريضاً، وإما لا يوجد شيء.

وإن انت لم تستطع اثبات مرض الجسم حقيقة، فلأن وسائلنا الراهنة لا تمكّن الطبيب من معرفة الطبيعة الحقيقية للاضطراب الذي لا ريب انه اضطراب عضوي.

لكن ما هي هذه النفس؟ المفهوم المادي يعتبر النفس مجرد ظاهرة تالية ونتاج ثانوي للسياقات العضوية التي في الدماغ، كما يعتبر ان كل اضطراب نفسي لا بد وأن يكون اضطراباً عضوياً او فيزيائياً؛ ان تعذّر اكتشافه، فلأن وسائل التشخيص الراهنة غير مكافئة. والحق ان ما يقوّي هذه النظرة تلك الصلة التي لا سبيل الى نكرانها بين النفس والدماغ؛ لكن هذه الصلة غير كافية لأن تجعل من هذه النظرة حقيقة لا تتزعزع. نحن لا ندري ان كان ثمة اضطراب عضوي اصاب سياقات الدماغ في حالة العصاب، كذلك يستحيل علينا ان نقطع، ان كان ثمة اضطرابات في الغدد الصمّاء، بأن هذه الاضطرابات ليست نتائج بأكثر مما هي اسباب.

من الناحية الأخرى، لا مجال للشك في ان الاسباب الحقيقية لحالات العصاب انما هي اسباب نفسية، لأنه يصعب علينا ان نتصور اضطراباً عضوياً او فيزيائياً يمكن شفاؤه في لحظة بمجرد الاعتراف. لقد شاهدت حالة من حمّى الهستيريا بلغت فيها الحرارة مائة ودرجتين، شفيت في بضع دقائق بالاعتراف بالسبب النفسي. ثم كيف يتأتّى لنا تفسير حالات أخرى من الأمراض الفيزيائية البيّنة، امكن التأثير فيها، بل شفاؤها، بمجرد مناقشة منازعات نفسية معيّنة؟ ولقد شاهدت حالة من الصُداف (مرض الصدف) استشرى في جميع انحاء الجسم، امكن شفاء تسعة أعشاره بعد بضعة أسابيع من العلاج النفسي. وفي حالة أخرى، أجريت لمريض عملية جراحية بسبب

تضخم الكولون، استؤصل منه اربعون سنتمتراً، ثم تلا ذلك تضخم فيه غير عادي. استبد اليأس بالمريض ورفض أن تُجرى له عملية ثانية، رغم ذهاب الجراح إلى وجوب إجرائها. وما ان امكن الكشف عن بعض الوقائع النفسية الدفينة حتى عاد الكولون يعمل بصورة طبيعية.

مثل هذه الاختبارات، وهي ليست نادرة على كل حال، تجعل من الصعب علينا ان نعتقد ان النفس لاشيء، او ان واقعة وهْم أمرٌ غير حقيقي، او انها لا توجد الا حيث ينشدها قصير النظر، النفس حقيقة موجودة، ولكن في شكل غير فيزيائي. وإنه لخُرْقٌ مضحك ان نزعم الأ وجود الا لما هو فيزيائي. والحق ان شكل الوجود الوحيد الذي نعرفه مباشرة هو الشكل النفسي. ولعله بوسعنا القول ان الوجود الفيزيائي ما هو الا استنتاج ما دمنا لا نعرف عن المادة الا بمقدار ادراكنا للصور النفسية التي تنقلها إلينا الحواس.

من الأخطاء الفادحة ان ننسى هذه الحقيقة، والأساسية مع ذلك. اذ لو لم يكن للعصاب من سبب غير الوهم، لكان مع ذلك شيئاً حقيقياً جداً. فلو توهم المرء اني عدوه اللدود ثم قتلني، لكنت في عداد الموتى بسبب وهم ليس إلا. الأوهام موجودة، وقد تكون حقيقية وضارّة وخطرة بمقدار ما تكون الحالات الفيزيائية كذلك. وإني لأذهب الى حد القول بأن الأخطار النفسية اشد خطراً من الأوبئة والزلازل. فالأوبئة التي اجتاحت الناس في العصور الوسطى كالطاعون والجدري لم تقتل من الناس ما قتلته اختلافات معينة في الرأي عام ١٩١٤، او ما قتلته مثل عليا سياسية معينة في روسيا.

مع ان عقلنا لا يستطيع ان يفهم صيغة وجوده الخاص، لافتقاره

الى نقطة ارخميدس الخارجية، الا انه موجود مع ذلك. النفس موجودة، لا بل هي الوجود نفسه.

والآن، ماذا نجيب مريضنا المصاب بسرطان وهمي؟ قد اجيبه: «نعم، يا صديقي، انك في الواقع مصاب بشيء يشبه السرطان. وانك في الواقع لتخفي شراً قاتلاً، لكنه لن يقضي على جسمك لأنه مرض وهمي، بل سوف يقضي على روحك في النهاية. لقد أفْسد، بل سمّم، علاقاتك الإنسانية وسعادتك الشخصية. ولسوف يظل يتفاقم على هذا المنوال حتى يبتلع كل وجودك النفسي. وبذلك لن تكون في النهاية كائناً إنسانياً بل ورماً خبيثاً مدمّراً.

واضح بالنسبة لصاحبنا انه ليس هو الذي انشأ وهمه المَرَضيّ، رغم ان عقله النظري يشعره بأنه هو صاحب وهمه وصانعه. هذا بخلاف ما لو اصيب امرؤ بسرطان حقيقي فإنه لا يعتقد ابداً انه مسؤول عن مَرَضه برغم إقامة السرطان في جسمه. لكن حينما يكون المرض نفسياً سرعان ما يشعر بنوع من المسؤولية، كما لو كنا نحن صانعي حالاتنا النفسية. ان هذا التحامل على انفسنا يرجع الى عهد قريب نسبياً. فقد كان الناس، منذ عهد غير بعيد، وحتى العريقون في التمدّن، يؤمنون بقدرة القوى النفسية على التأثير في العقل والشعور. كان هناك اشباح وسحرة وساحرات وشياطين وملائكة، بل وحتى آلهة - هذه كلها كان بوسعها إحداث تغييرات سيكولوجية معينة في الإنسان. في الأزمنة القديمة كان الذي يعتقد ان به سرطاناً ربما كان يشعر إزاء حالته بشعور يختلف كلّيةً. اذ ربما ظن ان احدهم قد سَحَره او انه ممسوس، وما كان يخطر بباله قط انه هو سبب هذا الوهم.

وإني لأذهب الى ان فكرته السرطانية هي نموّ ذاتي نشأ في ذلك

الجـزء من النفس غير المتّحـد بالواعية، اذ تبدو كأنها تطور مستقل اقحم نفسه على الواعية. وفيما يتعلق بالواعية يمكننا ان نقول عنها انها وجـودنا النفسي الخاص بنا، لكن السرطان ايضاً هو وجوده النفسي الخـاص به المستقـل عنـا. تبـدو هذه الإبانة وكأنها تصوغ الوقائع المشـاهـدة صياغـة تامـة. فإذا اخضعنا مثل هذه الحالة الى اختبار التداعي، اختبار تداعي الأفكار، فسرعان ما نتبيّن ان الإنسان ليس سيّداً في بيته. ثمة دُخلاء مستقلون يعملون على تأخير ارتكاساته، او تغييرهـا، او ضبـطهـا، او التعـويض عنها، وثمة عدد من الكلمات المحرّضة لا يمكن لنيّته الواعية ان تجيب عنها، بل تتولّى الإجابة عنها محتويات معينة مستقلة عنها، هي في الغالب، خفيّة على الشخص موضوع الاختبار. ولسوف نجد اجوبة آتية من قبل عقدة نفسية قائمة في اصل فكرة السرطان. وحينما تمسّ الكلمة المحرضة شيئاً ذا صلة بالعقدة الخبيئة يضطرب الرجْع (رد الفعل) الآتي من قبل الواعية، او يحل محله جواب آتٍ من قبل العقدة. وتبدو المسألة كما لو ان العقدة كائن مستقـل قادر على التـدخـل في مقاصد الأنيّة (الأنا)، Ego. والحق ان العقد تسلك مسلك شخصيات ثانوية او جزئية لها حياتها العقلية الخاصة بها.

كثير من العقـد عبـارة عن انشـطار عن الواعية التي آثرت ان تتخلص منها بالكبت. لكنّ هناك عقداً أخرى لم يكن لها في الواعية وجود أصلاً، ولذلك لا يمكن كبْتُها بصورة تحكّمية، فهي عقد تنشأ من الخـافيه، وتقوم باحتلال الواعية بما تحمله معها من اندفاعات واقتنـاعـات خاصـة لا قِبَـل لأحـد بالتغلب عليها. وحالة صاحبنا، المريض بسرطان الوهم، تدخل في هذه الزمرة. فهو بالرغم من ثقافته

وذكائه قد وقع ضحية يأسه لشيء استطاع ان يسيطر او يستحوذ عليه. لقد كان في منتهى العجز عن عوْن نفسه على القوة الشيطانية التي تتمتع بها فكرته المريضة، والحق ان فكرته قد طغت عليه طغيان السرطان في نموّها. لقد تبدّت له الفكرة يوماً، وظلت منذ ذلك الحين ثابتة لا تتزعزع، ولم يتحرر منها ولا فترة قصيرة.

مثل هذه الحالات تفسّر لنا، الى حدّ ما، لماذا يخاف الناس من ان يعوا أنفسهم. من يدري، فلعل هناك شيئاً ما خلف الستار، وبذلك يؤثر الناس «ان يأخذوا في الاعتبار وأن يرقبوا في حذر» العوامل الخارجة عن واعيتهم. ان لدى غالبية الناس نوعاً من الخجل البدائي مما قد تشتمل عليه خافيتهم. وان وراء جميع انواع الخجل الطبيعي، وكذا اللباقة والحياء، خوفاً خفيّاً من «مخاطر الروح» المجهولة. والحق ان المرء ليأبى ان يقبل على نفسه مثل هذا الخوف المضحك. لكن ما يجب عليه ان يدركه هو ان مثل هذا الخوف ما هو بالخوف الذي لا مسوّغ له، بل هو ـ على العكس ـ يستند الى اساس مكين جداً، فنحن غير واثقين ابداً من ان فكرة جديدة لن تستولي علينا، او على جيراننا، واننا لَنعلم، من التاريخ المعاصر كما من التاريخ القديم، ما قد تكون عليه مثل هذه الأفكار من غرابة، او من شذوذ احياناً، لا يقبل بها كل إنسان. ولعل النتيجة هي ان يُحرَق جميع المنشقّين احياء، او تُقطّع رؤوسهم، او يُصَفُّون بالجملة بأحدث المدافع الرشّاشة ـ هذا بصرف النظر عما اذا كانوا على حق ام لا. لا يمكننا الركون الى القول بأن مثل هذه الأمور ترجع الى الماضي البعيد. بل يبدو انها ـ ويا لسوء الحظ ـ لا ترجع الى الحاضر وحسب، بل تمتد الى المستقبل ايضاً. «الإنسان ذئب بشري»، HOMO HOMINI LUPUS ، هذه حقيقة

محزنة لكنها خالدة مع ذلك. والحق ان هناك سبباً قوياً وراء خوف الإنسان من القوى الخفية التي تقبع في خافيته. لكن، من حسن الحظ اننا لا نشعر بهذه القوى لأنها لا تظهر ابداً في معاملاتنا الشخصية في الظروف العادية. لكن هذه القوى ما تلبث ان تظهر اذا تجمع الناس وتجمهروا، إذّاك تنطلق القوى المحركة للإنسان الجماعي من عقالها - بهائم او شياطين كانت راقدة في كل شخص حتى يعود جزءاً من السواد. الإنسان في الجمهور ينحدر، لا شعورياً، الى مستوى اخلاقي وفكري مُتدنٍ، الى ذلك المستوى الذي يوجد دائماً هناك تحت عتبة الواعية، قائماً على أهبة الاستعداد للتقحّم ما إن يحرّضه محرّض عبر تشكّله في الجمهور.

وإني لأرى ان من فادح الخطأ اعتبار النفس الإنسانية مجرد قضية شخصية، ثم القيام بتفسيرها من وجهة نظر شخصية حصراً. مثل هذه الطريقة من التفسير لا تنطبق الا على الفرد في شؤونه وعلاقاته اليومية العادية. لكن ما إن يحصل شيء من الاضطراب في شكل حادث غير متوقع، فيه شيء من خَرْق العادة، حتى تتداعى على الفور قوى غريزية، تبدو غير متوقعة بالمرّة، قوى جديدة، وغريبة ايضاً. في هذه الحالة لا يمكن تفسير هذه القوى بالدوافع الشخصية، بل يمكن تفسيرها من خلال مقارنتها بحوادث بدائية معينة كالذعر الجماعي عند كسوف الشمس وما أشبه ذلك. ان نفسر الانفجار الفتّاك الذي حصل للأفكار البلشفية بعقدة أبوية شخصية امر يبدو غير مكافىء وحده على الإطلاق.

في الحقيقة لا يلزمنا غير شيء قليل كالعصاب حتى نستحضر

قوة لا يتأتّى لنا معالجتها بالوسائل المعقولة. فحالة السرطان، التي بين ايدينا، توضح بكل جلاء مدى العجز الذي يعاني منه العقل والذكاء البشريان حيال أتفه الأشياء الملموسة. وأنا انصح مرضاي دائماً ان يأخذوا مثل هذا الهُراء الظاهر، وهو هُراء لا يُقهر مع ذلك، باعتباره مظهراً لقوة ولمعنى غير مفهومين بَعْدُ. ولقد علّمتني التجربة ان أخذ مثل هذه الواقعة بجدّية، والبحث عن تفسير مناسب لها، هو من اكثر اساليب العلاج تأثيراً. لكن التفسير لا يكون مناسباً الا ان ينتج فَرَضية مساوية للأثر المرضي. ان المريض الذي نتحدث عنه يواجه ارادة سيطرة وإيحاءً اقوى من كل شيء تستطيع واعيته ان تجنّده في مقابلها. في هذه الحالة الخطيرة يكون من فساد الاستراتيجية ان نقنع المريض بأنه، على هذا النحو او ذاك، يقف وراء عَرَضه المَرَضي، وأنه يخترعه اختراعاً ويقوم بمساندته سرّاً، بالرغم من انه لا يمكنه ان يفهم ذلك على الاطلاق. ان مثل هذا الايحاء سرعان ما يصيب روحه المقاتلة بالشلل، ومعنوياته بالانهيار، خير له ان يفهم ان عقدته عبارة عن قوة مستقلة موجهة ضد شخصيته الواعية. زيادة على ان مثل هذا التفسير يناسب الحقائق الراهنة بأفضل مما يناسب ردّها الى حوافز شخصية. لا شك ان هناك حافزاً شخصياً، لكن النية لم تصنعْه بل قد حدث للمريض ليس إلا.

في ملحمة جلجامش البابلية نجد ان الآلهة، عندما رأت ما تشكله غطرسة البطل وغروره من خطر عليها، اخترعت له رجلاً يضارع غلغامش في قوته عساها ان تخفف من غلوائه وطموحه غير المشروع. الشيء نفسه حدث لصاحبنا المريض بالسرطان الوهمي، صاحبنا مفكر قد سوّى مشاكل العالم بقوة ذكائه وعقله، او هو يعتزم ان يسوّيها

على الدوام. وقد حالف التوفيق طموحه في حفر قدره الشخصي على الأقل. لقد اخضع كل شيء الى قانون عقله الصارم، لكن الطبيعة أفلتت منه في مكان ما، وعادت لكي تثأر منه على صورة هراء ممتنع امتناعاً تاماً، على صورة فكرة السرطان. هذه الحيلة البارعة قد حبكتها خافيته لكي تكبحه بلجام قاس لا يعرف الرحمة. وهل هناك أسوأ من هذه الضربة تُسَدّد الى جميع مثله العليا المعقولة، وإلى إيمانه بالإرادة البشرية الكلية القدرة؟ هذا المسّ لا يحدث إلا لشخص اتّخذ ديدنه الافراط في استخدام العقل والذكاء لغرض أناني، غير أن غلغامش استطاع ان يتفادى انتقام الآلهة، فقد رأى احلاماً تنذره بالخطر فأصاخ اليها، اذ بيّنت له كيف يستطيع التغلب على عدوه. أما مريضنا، الذي يعيش في عصر انقرضت فيه الآلهة بل باتت سيئة السمعة، فقد رأى، هو أيضاً، مثل هذه الأحلام، فما اصاخ اليها وما أعارها اهتماماً. أنّى لرجل في مثل ذكائه ان يؤمن بالخزعبلات ايماناً يجعله ان يحمل الأحلام على محمل الجد؟!

ان ما شاع من تَحامل على الأحلام ما هو إلا واحد من الأدلة على شيء اشد خطورة ـ اعني به استصغار شأن الروح البشري بعامة. ان التطور المذهل الذي وصل إليه العلم وتطبيقاتُهُ قابَلَهُ في ا لكِفّة الأخرى من الميزان فقر مخيف الى الحكمة والتبصر. صحيح ان تعليمنا الديني يتكلم على خلود الروح، لكنه لا يملك غير بضع كلمات عن نفس الانسان الحالي، التي لولا النعمة الإلهية لذهبت رأساً الى اللعنة الأبدية. هذان العاملان الهامان مسؤولان، الى حد كبير، عن شيوع استصغار شأن النفس، لكن مسؤوليتهما ليست بالمسؤولَيَة الكلية. فهناك ما هو اقدم بكثير من التطورات الحديثة نسبياً

ـ وأعني بذلك الخوف البدائي وتجنب كل ما من شأنه الدنوّ قرباً من الخافية (اللا شعور).

لا بد وأن كانت الواعية شيئاً قابلاً للعطب عند بدء نشوئها. فما زال باستطاعتنا ان نلاحظ السهولة التي تضيع فيها الواعية في المجتمعات البدائية. من «مخاطر الروح» مثلاً، ظاهرة «ضياع الروح»، وهي حالة يعود فيها جزء من النفس الى الخافية. ومثال آخر هو حالة «الأموك»، التي تساوي حالة «البرسرك» في السيرة الجرمانية، وهي حالة من الغيبوبة الكاملة تقريباً، يصحبها في الغالب آثار اجتماعية مدمّرة، حتى لتستطيع عاطفة عادية ان تسبب ضياعاً كبيراً للواعية. ولذلك يعمد البدائيون الى اصطناع اشكال متقنة من الأدب: يتكلمون همساً، ويضعون اسلحتهم على الأرض، ويجثمون حانين رؤوسهم، باسطين أكفّهم، حتى الأشكال التي نصنعها تأدّباً ما زالت تنمّ على مراقبة «دينية» للأخطار النفسية المحتملة. فنحن نستعطف الأقدار بالتمنّي سحرياً بيوم سعيد ـ ليس من اللياقة ان تُبقي يدك اليسرى في جيبك او وراء ظهرك وأنت تصافح احداً ـ وإذا اردت ان تبالغ في إكرامه فصافحه بكلتا يديك ـ وأمام الناس من ذوي السلطان ننحني ورؤوسنا مكشوفة، كأنما نعرضها بلا وقاية تملّقاً لصاحب الشأن، الذي ما أسرع ان يقع فجأة فريسة لنوبة عنف لا ضابط له. في رقص الحرب يمكن للبدائيين ان يهتاجوا حتى إراقة الدماء.

ان حياة البدائي مليئة بالحذر الدائم من الأخطار النفسية الكامنة ابداً. وما اكثر المحاولات والاجراءات الرامية إلى التخفيف من هذه الأخطار! وما اصطناع المناطق المحرّمة إلا دليل خارجي على هذه الحقيقة. فالمحرّمات التي لا حصر لها انما هي مناطق نفسية محددة،

تجري مراعاتها بدقة مصحوبة بالخوف. وقد ارتكبت مرة خطأ فادحاً حينما كنت نازلاً عند احدى القبائل التي تسكن السفوح الجنوبية من جبل «ايلكون». اردت السؤال عن بيوت الاشباح التي كثيراً ما وجدتها في الغابات، وفي اثناء الحديث نطقت بكلمة «سللتني»، SELEL-TENI، ومعناها «الشبح»، فما راعني إلا ان اشاحوا بوجوههم عني، لأني نطقت بصوت عال بما يهمسون به بحذر، وبذلك كنت عُرْضةً لأخطر النتائج. فكان أن غيرت الموضوع لكي اتمكن من متابعة المسامرة.

وقد اكّد هؤلاء انفسهم انهم لا يرون المنامات التي كانت امتيازاً لشيخ القبيلة أو العرّاف. اما هذا فقد اعترف لي انه لم يعد يرى منامات، لقيام مفوض المنطقة بدلاً عنه. قال لي: «منذ ان حل الانكليز في البلاد لم نعد نرى منامات، لأن مفوض المنطقة يعلم كل شيء عن الحرب والمرض، وعن المكان الذي ينبغي ان نسكن فيه». ان هذا التصريح الغريب مبني على اساس ان الأحلام كانت فيما مضى هي المرشد السياسي الأعلى. لقد كانت صوت «مونغو»، MUNGU؛ ولذلك كان من خطل الرأي عندهم ان يزعم إنسان عادي انه يرى منامات.

الأحلام هي صوت المجهول، الذي يتهددنا ابداً بخطط جديدة، بأخطار جديدة، بتضحيات وحروب وغير ذلك من المنغصّات. لقد حلم احد الزنوج الاميركيين بأن اعداءه قد أسروه وأحرقوه حيّاً. فدعا اقرباءه في اليوم التالي وتوسل اليهم ان يحرقوه. وافقوه على طلبه وأوثقوا رجليه ووضعوها في النار. وكانت النتيجة ان اصيب بتشويه فظيع، لكنه نجا من أعدائه.

هناك عدد كبير من العقائد والمراسم ما كانت لتوجد لولا ابتغاء إنشاء خط دفاعي يصد الاتجاهات المفاجئة والخطرة التي تصدر عن الخافية. والحقيقة الغريبة القائلة بأن الحلم هو صوت الله ورسوله، وأنه، إلى ذلك، مصدر للقلق ـ ان هذه الحقيقة لا تقلق ذهن البدائي ابداً. ومازلنا نجد بقايا واضحة من هذه الحقيقة البدائية في سيكولوجية انبياء التوراة. ولابد لنا من التسليم بأنه كان من الصعب على رجل تقي مثل هوشع ان يتزوج من مومس لولا ان ذلك كان امتثالاً لأمر ربه. لقد كان هناك منذ فجر البشرية ميل ظاهر إلى رسم حدود للتأثير «فوق ـ الطبيعي» العاصف والتحكّمي، في صيغ وشرائع محددة.

على مدى الألفين من السنين الماضية نجد الكنيسة المسيحية قد اتخذت لنفسها دور الوساطة والوقاية بين هذه التأثيرات والإنسان. وإننا لنجد في الكتابات الكنسية في العصور الوسطى ما يدل على إمكان حدوث فيض إلهي في الأحلام مثلاً. لكن هذه النظرة ما كانت لتلقى تأييداً تاماً، لأن الكنيسة كانت تحتفظ لنفسها بحق تقدير ما اذا كان الوحي صحيحاً ام لا. فبرغم اعتراف الكنيسة بإمكان صدور احلام معينة عن الله، نجدها تضرب صفحاً عن كل اهتمام جدّي بالأحلام، حتى لتنفر منها نفوراً شديداً، في الوقت الذي تسلم فيه باحتواء بعضها على وحي مباشر.

ولذلك لم تنظر الكنيسة بعين السخط إلى ما حصل من تغيير في المواقف الذهنية في القرون الأخيرة، لأنه قد صرف النظر عن الموقف التبصري السابق، الذي كان يتماشى مع حمل الأحلام والخبرات الداخلية على محمل الجد.

اما البروتستانتية فبعد ان هدمت كثيرا من الأسوار التي حرصت الكنيسة على إقامتها، سرعان ما أخذت تعاني من أثر التفكك والتشيع الناجمين عن الوحي الفردي. وما إن تقوّض السياج العَقَدي وفقد الطقس سلطانه، حتى وقف الإنسان وجهاً لوجه امام الخبرة الداخلية بدون وقاية أو إرشاد من عقيدة أو طقس، وهما الجوهر الذي لا يصارعه شيء في الخبرة الدينية المسيحية كما في الخبرة الدينية الوثنية. لقد فقدت الكنيسة البروتستانتية دفعة واحدة جميع الظلال اللطيفة في العقيدة المسيحية: القداس، والاعتراف، والقسم الأكبر من الطقوس والأهمية القربانية للكهنوت.

ينبغي ان اؤكد ان هذه الإبانة ليست حكماً تقويمياً وليس في نيّتي ان افعل ذلك. فأنا اعرض الوقائع ليس إلا. غير أن الكنيسة البروتستانتية قد شدّت من أزر الكتاب المقدس تعويضاً عن فقدان سلطان الكنيسة. لكن قابلية النصوص الكتابية للتفسير على عدة أوجه، وقيام النقد العلمي لكتب العهد الجديد الذي ساعد على إضعاف الطابع الإلهي للكتابات المقدسة ـ كل ذلك ادّى إلى انصراف جمهور كبير من المثقفين عن الكنيسة وعدم إعارتها أدنى اهتمام، تحت تأثير ما يُسمى بالتنور العلمي. ولو كان هؤلاء الناس جميعاً عقلانيين جامدين، أو رجال فكر معصوبين، لكانت الخسارة غير مأسوف عليها. لكن كثيراً منهم متدّين لم يعد باستطاعته الائتلاف مع الصيغ الراهنة للعقيدة. ولو كان الأمر غير ذلك، لما كان في وسع احد تفسير الأثر البارز الذي خلّفته حركة «بوخمان» في الطبقات البروتستانتية شبه المثقفة. فالكاثوليكي الذي أدار ظهره للكنيسة يطوّر عادة ميلاً، خفياً أو ظاهراً، للإلحاد. اما البروتستانتي فيتبع حركة

مذهبية، ان كان ذلك ممكناً. ان مطلقية الكنيسة الكاثوليكية تستلزم نفياً مطلقاً يكافئها. اما النسبية البروتستانتية فتفسح مجالاً للمغايرات.

ولعل هناك من يذهب إلى انني توغلت اكثر مما ينبغي في تاريخ المسيحية، لا لشيء إلا لكي ابيّن الفكرة الخاطئة المأخوذة عن الأحلام والخبرة الداخلية الفردية. لكن هذا الذي قلته توّاً ربما كان طرفاً من حوار أجريته مع المريض بالسرطان. لقد قلت: خير له ان يحمل حُوازَهُ OBSESSION على محمل الجد من ان ينبزه بالهراء المَرَضيّ. لكن ان يحمله على محمل الجد معناه الاعترافُ به نوعاً من المعلومات التشخيصية القائلة بأن الاضطراب الحاصل في نفسٍ لها وجود حقيقي قد اتخذ شكل نموّ شبيه بالسرطان. ولقد تساءل: «ماذا عساه ان يكون هذا النمو؟»، فكان الجواب: «لا أدري». لأنني حقاً لا أدري. مع انه من المؤكد، كما سبق لي وذكرت، ان هذا النمو قد تطوّر تطوّراً خفيّاً على سبيل التعويض أو الإتمام، لكننا لا نعرف عن طبيعته النوعية أو عن محتواه شيئاً. لقد كان من تجلٍ عفوي قامت به الخافية، لا سبيل إلى العثور على محتوياته في الواعية.

لقد بات صاحبنا الآن، وقد استبد به الفضول لمعرفة كيف سأتدبّر امر الوصول إلى هذه المحتويات التي تشكل اصل «حُوازه». عندئذٍ أخبره، مخاطراً بأن يصاب بصدمة قاسية، بأن احلامه سوف تزوّدنا بجميع المعلومات اللازمة. ولسوف نعامل هذه الأحلام كما لو كانت صادرة عن مصدر شخصي ذكي هادف، كما هي حقيقة الأمر. وان هذا القول فرضية جريئة ومغامرة في الوقت نفسه، لأننا سوف نولي ثقة لكيْنونة لا يوثق بها، مازال لا يَعترف بها عدد غير قليل من علماء النفس والفلاسفة المعاصرين. لقد علّق احد علماء الإنسان

المشهورين، ممن اطلعتهم على طريقتي في العلاج، بالقول: «ان هذا مثير للاهتمام حقاً، لكنه خطر!». اجل، وإنه لخطر تماماً مثلما هو العُصاب خطر. لأنك عندما تريد شفاء معصوب، يجب عليك ان تخاطر بشيء ما. ان تفعل شيئاً بلا مخاطرة هو ان يكون بلا أثر، كما نعلم ذلك جيداً. ان اجراء عملية استئصال السرطان مخاطرة ايضاً، ومع ذلك لابد من إجرائها. وفي سبيل الوصول إلى تفهم افضل، كنت كثيراً ما أغري نفسي بنصح مرْضاي ان يفهموا النفس جسماً لطيفاً قد تنشأ فيه أوْرام لطيفة ايضاً. وقد بلغ الاعتقاد الخاطىء بأن النفس شيء لا يمكن تصوره، وبالتالي هي أقل من الهواء، أو هي اشبه بنظام فلسفي له مفهومات منطقية، مبلغاً حمل الناس على القول بعدم وجود محتويات معينة إن كانوا لا يشعرون بها. فهم لا يثقون ولا يؤمنون بوجود وظيفة نفسية يُرْكَن اليها خارج الواعية. والاعتقاد الشائع هو ان الأحلام اشياء تبعث على الضحك ليس إلا. ولا عجب ان تثير آرائي في مثل هذه الظروف اقبح انواع الرِّيب. وفي سبيل دحض الأطياف الغامضة في الأحلام سمعت كل حجة مُتَصوَّرة تحت الشمس اخترعها الإنسان.

ومع ذلك نجد في الأحلام، دونما تحليل عميق، نفس المنازعات والعقد التي يمكننا التحقق من وجودها بواسطة اختبار التداعي، فضلاً عن ان تلك العقد تشكل جزءاً لا يتجزأ من العصاب. لذلك من حقنا الاعتقاد ان الأحلام قد تمدّنا بمعلومات عن محتوى العصاب بمقدار ما يمدّنا به اختبار تداعي الأفكار على الأقل. وهي في الحقيقة تمدنا بمعلومات اكثر بكثير مما يمدّنا به هذا الاختبار. ان العَرَض المَرَضيّ يشبه الغصن فوق سطح الأرض، لكن النبتة الرئيسية

عبارة عن جُذْمور RHIZOME ممتدّ في باطنها. فالجذمور يمثل محتوى العصاب، وهو بمنزلة الرحم من العقد والأعراض والأحلام. وعلى هذا ان من حقنا الاعتقاد ان الأحلام تعكس السياقات الباطنية من النفس عكساً تاماً. وإذا نحن وصلنا إلى هناك، فإنما نصل إلى «جذور» المرض بالمعنى الحرفي للكلمة.

ولما كان ليس في نيّتي ان اتوسع في امراض العصاب، رأيت ان اتخيّر حالةً أخرى مثالاً على الكيفية التي تكشف بها الأحلام عن الحقائق الداخلية المجهولة من النفس، وعن العناصر المكونة لهذه الحقائق. الحالم، في هذه الحالة، رجل فكر ايضاً، ذو ذكاء وعلم متميّزين. لقد كان معصوباً، فجاءني ينشد العون عندما احس انْ لا طاقة له على تحمّل عصابه، الذي بدأ، بطيئاً لكن ثابتاً، بتحطيم قواه المعنوية. لحسن الحظ، لم تكن سلامته العقلية قد تأثرت بعد، وكان في وسعه الإفادة من ذكائه الرفيع بكل حرية. ولأنه كذلك، أوْكلت إليه مهمة مراقبة احلامه وتدوينها بنفسه. لكننا ما بدأنا بتفسير احلامه او تحليلها الا بعد انقضاء زمن طويل عليها. فظلت احلامه، التي سوف أعرضها، دون أن تمتد يدٌ إليها. كانت تمثل تسلسلاً من الحوادث لم يتأثر الشيء ابداً. وكان المريض لم يقرأ شيئاً عن علم النفس، ناهيك عن علم النفس التحليلي.

ولما كانت السلسلة مؤلفة مما يزيد على اربعمائة حلم، كان من غير الممكن إعطاء فكرة عن الموضوع برمّته، فتخيّرت للنشر منها اربعة وسبعين اشتملت على دوافع ذات اهتمام ديني بنوع خاص. كان الحالم، وهو ما يجب قوله، كاثوليكياً بالتربية، إلا أنه كان منقطعاً عن ممارسة الطقوس، كما كان منقطعاً عن الاهتمام بالمسائل الدينية،

وكان من اولئك المفكرين أو العلماء، الذين ما أيسر ان يَعْتَرِيَهُمْ ذهول اذا أرهقهم أحدٌ بأفكار دينية من أي نوع.

ان كنا نعتقد ان للخافية وجوداً مستقلاً عن الواعية، فإن حالة كالتي أصابت صاحبنا قد ترتدي اهمية خاصة، شريطة الاّ يخطئنا الرأي في الصفة الدينية التي تتصف بها أحلام معينة. اما اذا شدّدنا على اهمية الواعية وحدها، ولم نؤمن بأن للخافية وجوداً مستقلاً، فإن من الأمور ذات الأهمية بمكان ان نتحقق مما اذا كان الحلم قد استمّد موضوعه من محتويات الواعية ام لا. فإذا جاءت الوقائع في صالح الفرض الأول الذي يقول بالخافية، استطعنا ان نستفيد من الأحلام مصدراً للمعلومات تكشف لنا عن الميول الدينية الممكنة القابعة في ظلمات الخافية.

لا يمكننا ان نتوقع من الاحلام ان تحدثنا عن الدين، على نحو ما نعرفه، حديثاً صريحاً. غير ان حلمين اثنين، من اصل اربعمائة، يمتّان إلى الدين بسبب ظاهر. وفيما يلي النص الذي دوّنه الحالم نفسه:

«كان هناك بيوت كثيرة ذات طابع مسرحي، نوع من المشهد المسرحي ـ بعضهم يذكر اسم برنار شو ـ كذلك ذكر ان المسرحية التي ستمثل تشير إلى المستقبل البعيد ـ احد هذه البيوت تميّز بلافتة كتب عليها ما يلي:

هذه هي الكنيسة الكاثوليكية المسكونية،
انها كنيسة الرب.

يسمح بالدخول لمن يشعر انه اداة للرب.
وقد كتب تحتها بأحرف صغيرة:
الكنيسة اسسها يسوع وبولص.

ـ كان ذلك اشبه بصاحب متجر يفاخر بقدم محله ـ قلت لصديقي: لندخلْ ونُلْقِ نظرة ـ اجاب: لا أرى موجباً ان يتجمع الناس لكي يمارسوا شعائرهم الدينية معاً ـ لكنني قلت: انك بروتستانتي، ولهذا لن تفهم ذلك ـ هناك امرأة احنت رأسها بالموافقة ـ وإني لكذلك إذ ابصرت لائحة ملصقة على حائط الكنيسة ـ كان مضمونها ما يلي:

ايها الجنود!

عندما تشعرون انكم في قبضة الرب تجنبوا الحديث اليه رأساً ـ الرب لا يبلغ بالكلمات ـ كذلك نوصيكم بعدم الخوض في مناقشات تدور على صفات الرب ـ فذلك عديم الجدوى، لأن كل شيء ذي قيمة وأهمية لا يمكن الاعراب عنه.

التوقيع: البابا. . . . (الاسم لم يمكن تبيّنه).

«ها نحن ندخل الكنيسة ـ داخلها اشبه بمسجد منه بكنيسة ـ في الحقيقة اشبه شيء بأيا صوفيا ـ كذلك لا توجد صور ـ لم يكن هناك غير جمل مؤطرة على الحيطان (كالتي نشاهدها في ايا صوفيا) ـ احدى هذه الجمل تقول: لا تتملق إلى من احسن إليك ـ المرأة ذاتها، التي أحْنَتْ رأسها بالموافقة من قبل، اخذت تبكي قائلة: اذن لم يتركوا شيئاً على الإطلاق ـ اجبت: اظن ان كل شيء على احسن مايرام ـ ثم ما لبثت حتى توارت.

«في بادىء الأمر، كنت واقفاً قبالة عمود يحجب المنظر ـ ثم

غيرت موقعي، فرأيت جمعاً من الناس امامي ـ لم اكن منهم فظللت واقفاً بمفردي ـ لكنني رأيتهم بوضوح ورأيت وجوههم ايضاً ـ كانوا ينطقون بالكلمات التالية: نحن نعترف اننا في قبضة الرب ـ ان ملكوت السماء في قلوبنا ـ اعادوها ثلاثاً بخشوع كبير ـ ثم عزف الأرغن مقطوعة لباخ، ورتلت اناشيد جماعية ـ احياناً كانت الموسيقى لوحدها، واحياناً تتكرر معها الكلمات: كل شيء آخر ورق ـ وتعني انه لا يترك اثراً جديراً بالحياة.

«عندما توقفت الموسيقى بدأ الجزء الثاني من الاحتفال، كما جرت عليه العادة في اجتماعات الطلبة حين يلي الجانب المرحَ، من الاجتماع معالجةُ الشؤون الهامة ـ كان هناك اناس هادئون وناضجون ـ احدهم كان يمشي جيئة وذهاباً، وآخرون يتكلمون معاً، يرحب بعضهم ببعض، ويُطاف عليهم بالنبيذ والمشروبات الأخرى من المعهد الأسقفي ـ وعلى طريقة شرب النخب كان الواحد منهم يتمنى للكنيسة نمواً مناسباً ـ ومكبرة الصوت تذيع أغنية بهذه اللازمة: شارل ايضاً دخل في اللعبة ـ لقد كانت هذه اللازمة بمثابة تعبير عن البهجة بانضمام عضو جديد إلى الجمعية ـ وكان هناك كاهن يشرح ذلك بقوله: هذه التسليات التافهة نوعاً ما شيء معترف به ومقبول رسمياً ـ يجب ان نتكيّف قليلاً مع الطرائق الاميركية ـ لكننا نختلف عن الكنائس الاميركية من حيث المبدأ ـ لأننا نعتمد اتجاهاً بعيداً عن الزهد اعتماداً كبيراً ـ عندئذٍ استيقظت يغمرني شعور عظيم بالانفراج».

وكما تعلمون وَضعت تصانيف عديدة في دراسة ظاهرة الأحلام، لكن قلة منها تناولتها من الوجهة السيكولوجية. وما ذلك إلا

لأنها من اكثر الأشياء حساسية ومخاطرة. لقد قام فرويد بجهد جريء بغية عزل تشابكات سيكولوجية الحلم، مستعيناً بنظرات جمعها من ميدان الأمراض النفسية. وبرغم اعجابي الشديد بمحاولته الجريئة، لا تسعني موافقته على منهجه ولا على نتائجه. فهو يعتبر الحلم مجرد واجهة تخفي وراءها شيئاً قد غُيّب في حرص. لاشك ان المعصوبين يخبّئون اشياء غير مرغوبة، ولعل هذا هو ما يفعله الأصحاء ايضاً، لكن المسألة تغدو مسألة خطرة اذا طبقنا ذلك على ظاهرة بلغت ما بلغته الاحلام من اتّساع وطبيعية. وإن شكّاً ليخامرني حول ما اذا كان في وسعنا الافتراض بأن الحلم شيء آخر غير ما يبدو ان يكون. بل إني لأميل إلى الاقتباس من مرجع يهودي آخر هو «التلمود» الذي يقول: «الحلم هو تأويله الخاص». بعبارة أخرى، انا اعتبر الحلم امراً مسلّماً به. فقد بلغ من الصعوبة والتشابك مبلغاً لا اجرؤ معه ان اعتمد أي فرض حول طبيعته المحتملة. الحلم حادث طبيعي، وما من سبب تحت الشمس يحملنا على الافتراض بأنه مكيدة بارعة أحكم تدبيرُها لكي تسلك بنا مسالك الضلال. انما يحدث الحلم عندما تكون الواعية منطفئة إلى حد كبير. وهو يبدو نتاجاً طبيعياً ونجده عند غير المعصوبين. زد على ذلك اننا لا نعلم غير النزر اليسير عن سيكولوجية سياق الحلم حتى ليقتضي منا ان نبالغ في الحذر عندما نقحم على الحلم نفسه عناصر غريبة عنه ابتغاء تأويله.

لهذه الأسباب مجتمعة اذهب إلى ان هذا الحلم يتحدث عن الدين وأنه يقصد ان يفعل ذلك. وبما ان الحلم محكم ومتناسق نجده يوحي بمنطق معين وقصد معين، أي مسبوقاً بدافع من الخافية وجد في الحلم تعبيراً مباشراً عن نفسه.

فالقسم الأول من الحلم إبانة جادّة لصالح الكنيسة الكاثوليكية. لأن صاحب الحلم يناهض وجهة نظر بروتستانتية معينة: وأعني بها ان الدين خبرة فردية.

والقسم الثاني، وهو الأغرب، يشتمل على تكيّف الكنيسة مع وجهة نظر دنيوية لا ريب فيها.

والخاتمة إبانة لصالح الاتجاه المناهض للزهد. وهو اتجاه لا تدعمه الكنيسة الحقيقية، ولا يمكنها ان تدعمه. لكن الكاهن المناهض للزهد، الذي رآه الحالم، يجعل من هذا الاتجاه مسألة مبدئية.

فالارتقاء الروحي والسموّ النفسي مبدأان مسيحيان مسلّمان، وكل إصرار على العكس يؤدّي إلى وثنية مجدّفة. فالمسيحية ما كانت قط، ولا خطر ببالها قط، ان تقيم حسن جوار مع أطايب المأكولات والمشروبات. ومن اشد الأشياء مدعاةً للارتياب ان يكون اعتماد موسيقى الجاز في العبادة شيئاً له قيمة.

اما الشخصيات «الهادئة والناضجة»، التي تتحاور فيما بينها تنقّلاً من موضوع إلى آخر بطريقة شبه ابيقورية، فتذكرنا بمثل اعلى فلسفي قديم تعافه النفس المسيحية المعاصرة.

يضاف إلى ذلك ان في القسم الأول من الحلم، كما في القسم الثاني، توكيداً على اهمية الجمهور.

بذلك تظهر الكنيسة الكاثوليكية، وإن كانت موضع عناية شديدة، مقرونة بنظرة وثنية غريبة لا يمكنها ان تتواءم مع موقف مسيحي في الأساس. لكن التنافر الحقيقي لا يظهر في الحلم، بل يجيء همساً كما لو كان ذلك في جوّ تختلط وتمتزج فيه المتضادّات.

فوجهة النظر البروتستانتية حول العلاقة الفردية بالله يسيطر عليها التنظيم الجماعي، وما يقابله من شعور جماعي ايضاً. والاصرار على الجمهور والتلميح إلى مثل أعلى وثنيّ هما متوازيان خاصان بأشياء تحدث الآن في اوروبا.

ما من احد الا وتدهشه الوثنية في المانيا المعاصرة، لأنه ما من أحد يعرف كيف يفسر الخبرة الديونيسية عند نيتشه. والحق ان نيتشه لم يكن غير حالة واحدة من ألوف الحالات، بل من ملايين الحالات، التي ظهرت في الألمان الذين جاؤوا بعده، ممّن تطوّر في خافيتهم، إبّان الحرب العظمى، الابن العم الألماني لديونيسوس، وأعني به «فوطان»، WOTAN. ففي احلام الألمان الذين عالجتهم آنذاك استطعت ان ارى بجلاء الثورة «الفوطانية» وهي تطفو إلى السطح. في عام ١٩١٨ نشرت مقالاً ابرزت فيه النوع الخصوصي من التطور الجديد الذي يجب ان يُحسب له حساب في المانيا. لم يكن هؤلاء الألمان درسوا «هكذا تكلم زرادشت»، ولم يكن اولئك الشبان الذين اخذوا بممارسة القرابين الوثنية المتمثلة بذبح الشياه يعرفون شيئاً عن خبرة نيتشه. ولذلك كانوا يدعون إلههم «فوطان» لا ديونيسوس. وفي سيرة نيتشه نجد أدلّة لا سبيل إلى دحضها على ان الإله الذي كان يقصده في الأصل انما كان «فوطان» في حقيقة الأمر. لكنه دعاه ديونيسوس، لأنه كان لغوياً يعيش في العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر. ولو نظرنا إلى الإلهين من منطلق المقارنة لوجدنا بينهما تشابهاً كبيراً.

ظاهرياً، لم يكن في الحلم كله اعتراض على الشعور الجماعي، ولا على الدين الجماعي، ولا على الوثنية، اللهم الا

الصديق البروتستانتي الذي لاذ بالصمت فجأةً. لم يكن هناك غير حادثة واحدة غريبة تستحق منا الاهتمام: تلكم هي المرأة المجهولة، التي أيّدت الثناء على الكثلكة في أول الأمر، ثم انخرطت فجأة في البكاء وهي تقول: «اذن، لم يتركوا شيئاً على الاطلاق»، ثم توارت بلا عودة.

من هي هذه المرأة؟ انها، بالنسبة إلى صاحب الحلم، شخص غامض مجهول. لكنه حين رأى هذا الحلم بات يعرف جيداً انها «المرأة المجهولة» التي كثيراً ما ظهرت له في الأحلام السابقة.

لما كان هذا الشكل يلعب دوراً كبيراً في احلام الرجال، اصطلحنا على تسميته بـ «الأنيمة»، ANIMA، بسبب ما أبرزه الإنسان في اساطيره، منذ اقدم العصور، من فكرة تواجد الذكر والأنثى في الجسم الواحد. ولقد كان هذا الحدس السيكولوجي ينعكس من الداخل اضفاء على شكل الزوجين الإلهيين، أو على فكرة الطبيعة الخنثوية للخالق. فإدوارد متلاند، صاحب سيرة آدم كنغز فورد، يروي لنا في ايامنا هذه خبرة داخلية عن طبيعة الألوهة الازدواجية الجنس. ثم هناك فلسفة هرمزية تقول بالطبيعة الخنثوية والأندرو ـ جينية في داخل الإنسان، وان «آدم البشري»، وإن كان يبدو ذكراً، يحمل في جنبيه زوجته حواء مخبأة تحت جلده ـ على حد ما قال احد الشارحين على كتاب «هرقيس تراكتاتوس اوريوس».

ولعل الأنيمة مظهر نفسي للأقلية من الجينات المؤنثة التي ينطوي عليها جسم الذكر. وما يعزز هذا الاحتمال ان هذا الشكل نفسه، الأنيمة، لا يمكن العثور عليه في صور خافية الأنثى.

على ان هناك شكلاً مقابلاً يلعب دوراً مساوياً لدور الأنيمة،

لكنه ليس بصورة امرأة بل بصورة رجل. وهو الشكل المذكر في سيكولوجية المرأة، وقد اصطلحنا على تسميته بـ «الأنيم»، ANIMUS.

من اكثر العلاقات نموذجية على هذين الشكلين: أعني الأنيمة والأنيم، ما أطلق عليه منذ زمن بعيد اسم «الأنيميّة»، ANIMOSITY، وهي العداوة. فالأنيمة تسبب اطواراً غير منطقية، والأنيم ينتج موضوعات مثيرة وآراء بعيدة عن الاعتدال. وكلاهما يتكرر في الأحلام. والقاعدة هي انهما يشخّصان الخافية ويطبعانها بطابع النفور أو الغضب، برغم ان الخافية بحد ذاتها ليس لها مثل هذه الصفات السلبية. وهما لا يظهران الا عندما يتمثلان في شكل امرأة أو رجل ويبدأان عملهما المؤثر في الواعية. ولمّا كانا شخصيّتين جزئيّتين، كان الطابع المميز لهما هو إما امرأة وضيعة أو رجلاً وضيعاً، ومن هنا كان تأثيرهما الانفعالي. والرجل الذي يختبر الأنيمة يخضع إلى ما لا حصر له من نوبات الغضب. اما المرأة فتكون شديدة المِراء، وتصدر عنها آراء بعيدة عن الصواب.

ما يبرز الردة السلبية الكاملة، الصادرة عن الأنيمة، كون الأنثى في الحالم ـ اعني الجانب الخفيّ منه ـ لا توافقه على موقفه. وهذا الرفض ناشيء عن الجملة المكتوبة على الحائط: «لا تتملق إلى من احسن إليك»، التي يوافق عليها صاحب الحلم. وان معنى الجملة ليبدو صحيحاً حتى اننا لا نفهم لماذا تشعر المرأة باليأس حيالها. بدون ان نوغل في هذا السر، حسْبنا ان نقول ان في الحلم تناقضاً، وإن اقلية هامة جداً قد غادرت المسرح وعليها أمارات احتجاج صارخ، ولم تعد تعير انتباهاً لمزيد من الاجراءات.

نفهم من الحلم انّ الخافية تنتج مصالحة سطحية جداً بين الكثلكة ومتع الحياة الوثنية، وان نتاج الخافية لا يعبر بصراحة عن وجهة نظر أو رأي محدّد، بل هو أقرب ما يكون إلى عرض درامي لفعل التأمل. ولربما كان ممكناً ان يصاغ على النحو التالي: «والآن، ماذا عسى ان يكون هذا الاهتمام الديني؟ انت كاثوليكي، اليس كذلك؟ أليس ذلك جيداً جداً؟ لكن الزهد! حسناً، حسناً، حتى الكنيسة يجب ان تتكيّف قليلاً: سينما ـ راديو ـ شاي روحي في الساعة الخامسة وما إلى ذلك ـ لماذا لا يدار نبيذ كنسي وتقام حفلات تعارف بهيجة؟». لكن هذه المرأة الوضيعة الغامضة، التي باتت معروفة جداً في احلام كثيرة سابقة، تبدو ـ لسبب خفيّ ـ وقد أصابها اليأس فتغادر.

يجب ان اعترف بأني اتعاطف مع الأنيمة. لأن هذه المصالحة هي في منتهى الرخص والسطحية ـ وهما ما يتميز به صاحب الحلم مثلما يتميز به كثير غيره ممن لا يعني لهم الدين شيئاً كثير. والحق ان الدين لم يكن يعني شيئاً للمريض صاحب الحلم، ولم يكن يتوقع قط ان يعني له شيئاً. وبما هو مفرط في عقلانيته وفي تفكيره، ألْفى موقفه الذهني والفلسفي قد تخلّى عنه نهائياً وأسلمه إلى العصاب وإلى القوى المحطّمة لمعنويّاته. لم يجد في كل ما لديه من صرامة عقلانية ما يعينه على استعادة رقابته على نفسه. ولذلك كان في وضع مَنْ هجرتْه معتقداته ومثله العليا التي ظل يؤمن بها حتى الآن. وليس من الأمور الاستثنائية ان يعود الإنسان في مثل ظروفه إلى ديانة طفولته عسى ان يجد فيها ما يعينه على نفسه. على ان انبعاث معتقداته الدينية السابقة لم يكن ناجماً عن محاولة واعية أو عن قرار واع. لقد

حلم بذلك لا اكثر ـ اي ان خافيته قد انتجت له إبانة خاصة عن ديانته. وإن الأمر ليشبه ما لو أن الروح والجسد، وهما العدوّان الأبديّان في الواعية المسيحية، قد عقدا فيما بينهما مصالحة تقوم على تخفيض غريب من حدة طبيعتهما المتناقضتين، أي ان الروحانية والدنيوية تلتقيان التقاء سلمياً على نحو غير متوقّع. والنتيجة فيها من الغرابة مثل ما فيها من الهزل. فصرامة الروح التي لا تُهاود تنسفها متعة شبه قديمة، مُضمّخة بالنبيذ والورد. ثم ان الحلم يصف لنا جواً روحانياً ودنيوياً من شأنه ان يثلم حدّة الصراع الأخلاقي، وأن يلتهم كل ما فينا من ألم وأسى نفسيّين.

لو كان هذا الحلم إشباع رغبة، لكان حلماً ناشئاً عن الواعية، لكن هذا كان بالضبط هو ما قد أفرط المريض فيه. يضاف إلى ذلك ان المريض لم يكن غافلاً عن هذا الأمر، باعتبار ان النبيذ كان من ألّد اعدائه. لقد كان الحلم إبانةً حيادية عن حالة المريض الروحية، صورته لديانة متدهورة قد أفسدتها الهموم الدنيوية والغرائز الغوغائية. لقد كان هناك عاطفة دينية بدلاً من اختبار «النيومنوزم» الإلهي، وهو الطابع الذي تتصف به كل ديانة فقدت سرّ حياتها. وما أيسر ان ندرك ان هذه الديانة غير قادرة على العون، أو على ان يكون لها أثر اخلاقي آخر.

المظهر العام الذي يتخذه الحلم غير ملائم برغم وجود مظاهر معينة أخرى ذات طبيعة اكثر إيجابية لا نكاد نراها. والأحلام قلّما يحدث ان تكون ايجابية أو سلبية حصراً؛ بل القاعدة ان نجد فيها كلا الجانبين معاً، وأن يكون احدهما اقوى من الآخر عادة. وواضح ان

مثل هذا الحلم يُمدّ العالم النفسي بمادة كافية لأن تثير مشكلة الموقف الديني. ولو كان هذا الحلم هو الوحيد الذي بين ايدينا، لصعب علينا أن نأمل بفتح مغاليق معانيه الداخلية، لكنّ في السلسلة عدداً كبيراً من الأحلام تشعرنا بأن هناك مشكلة دينية خطيرة. انا لا أفسر الحلم بنفسه ابداً، إن كان هذا في استطاعتي. والقاعدة هي ان الحلم جزء من سلسلة احلام. وبما ان الواعية تظل ماضية في عملها، بالرغم من قطع النوم لها بانتظام، كان من المحتمل ان يكون هناك استمرار في سياقات الخافية، ولعل هذا يحدث اكثر مما يحدث في الواعية. على كل حال، ان خبرتي تؤيد الاحتمال بأن الأحلام هي الحلقات المرْئية من سلسلة حوادث الخافية. ولئن اردنا ان نلقي ضوءاً على مسألة الأسباب العميقة الكامنة وراء الحلم، تعيّن علينا ان نعود إلى سلسلة الأحلام المؤلفة من اربعمائة حلم لكي نتبيّن موقع هذا الحلم من السلسلة.

ينحصر حلم الكنيسة بين حلمين هامّين يتصفان بقلة الحذق. فالحلم الذي قبله يحكي عن تجمع أناس كثيرين وحفلة خاصة، ذات طابع سحري بحسب الظاهر، تقام من اجل «اعادة تكوين الجيبون». والحلم الذي بعده يتعلق بموضوع مشابه: تحويل الحيوانات سحرياً إلى كائنات بشرية.

ان المريض ينفر من الحلمين اشد النفور ويشعر انهما ينذرانه بشؤم. وبينما يجري حلم الكنيسة فوق السطح بصورة جليّة. ويعرض افكاراً يمكن اعتبارها افكاراً واعية في ظروف أخرى، نجد هذين الحلمين يتخذان طابعاً غريباً وبعيداً، ويحدثان في المريض أثراً

عاطفياً لو كان بإمكانه ان يتجنبه لفعل. يقول الحلم الثاني بالحرف الواحد: «اذا هرب المرء ضاع كل شيء». وان هذا لَيَتفقُ بصورة غريبة مع ما قالته المرأة المجهولة في حلم الكنيسة:

«اذن، لم يتركوا شيئاً على الإطلاق». والنتيجة التي نستخلصها من هذين القولين هي ان حلم الكنيسة كان محاولة للهرب من افكار حلمية أخرى ذات دلالة ابعد غوراً. وان هذه الأفكار تظهر خلسة في الأحلام التي تحصل قبله وبعده.

الدغماطيقا والرموز الطبيعية

يتحدث اول هذه الأحلام الثلاثة، وهو الذي يسبق حلم الكنيسة، عن احتفال يجري فيه إعادة إنشاء القرد. وشرح هذه النقطة شرحاً وافياً يتطلب الدخول في تفصيلات كثيرة؛ لذلك سأقتصر على القول ان «القرد» يدل على شخصية الحالم الغريزية التي اهملها الحالم اهمالاً تاماً في سبيل موقف فكري على وجه الحصر، كان من جرّائه ان قهرته غرائزه (= استولت على خير ما فيه)، وراحت تهاجمه احياناً بانفجارات لا ضابط لها. وتعني «إعادة إنشاء القرد» إعادة لبناء الشخصية الغريزية في إطار من المرْتبيّة الواعية، وهي إعادة غير ممكنة إلا ان تصاحبها تغيرات هامة تطرأ على الموقف الذي تتخذه واعيته. كان المريض يخاف من اتجاهات الخافية وما تتكشف عنه من صيغ بعيدة عن الملاءمة بعداً شديداً. وما حلم الكنيسة الذي جاء في اعقابه غير محاولة للهرب من هذا الخوف والاحتماء بالدين. اما الحلم

الثالث، الذي يتحدث عن تحويل «الحيوانات إلى كائنات بشرية»، فاستمرار لموضوع الحلم الأول؛ بمعنى ان اعادة انشاء القرد لم تكن إلا من اجل تحويله إلى كائن بشري في وقت لاحق. لسوف يصبح صاحبنا كائناً جديداً. بعبارة أخرى، يقتضي من المريض الخضوع إلى تغيّر هام ـ فحوّاه ان يعود إلى بنيته النفسية جانبُها الغريزي الذي ظل إلى ذلك الحين منشطراً عن واعيته، حتى يعود خلقاً جديداً.

لقد نسي العقل الحديث تلك الحقائق القديمة التي تتحدث عن موت الرجل العجوز وخلق إنسان جديد منه، وعن الولادة الروحية الجديدة، وما اشبه ذلك من «سخافات مستطيقية» (= صوفية) عفاها الزمن. ان مريضنا، وهو من علماء اليوم، قد طالما أصابه الهَلَعُ عندما كان يتبيّن له مبلغ خضوعه لسيطرة مثل هذه الأفكار. كان يخشى على عقله الجنون، على حين كان انسان ما قبل ألفيْ سنة يرحب بمثل هذه الأحلام ويطرب لها ويُمنّي نفسه بولادة سحرية جديدة، وحياة جديدة. لكن موقفنا المعاصر يضرب صفحاً عن ضباب الخرافة، وسرعة التصديق التي اتصف بها الإنسان البدائي أو الوسيط، وينسى بالمرّة انه انما يحمل ماضيه الحيّ برّمته في الطبقات السفلى من ناطحة سحاب واعيته العاقلة. بدون هذه الطبقات يظل عقلنا معلقاً في الهواء. فلا عجب بعد ذلك ان يُبتلى بالعصاب. ان تاريخ العقل الحقيقي لا تحفظه المجلدات العلمية، بل التكوين العقلي الحيّ في كلّ منا.

على انني يجب ان اسلّم بأن فكرة تجديد الحياة قد اتخذت لها اشكالاً ما أيسر ان تصدم العقل الحديث. وإنه لمن الصعب، ان لم

يكن من المستحيل، ان نقرن «الولادة الجديدة»، كما تبدو لنا، بالطريقة التي تتولى بها الأحلام وصفها.

قبل ان اتطرّق إلى دخائل عملية التحوّل المفاجىء والغريب، ارى لزاماً عليّ ان اصرف بعض الانتباه إلى الحلم الديني الآخر الذي اشرت اليه من قبل.

بينما كان حلم الكنيسة مبكراً نسبياً في سلسلة الأحلام الطويلة، جاء الحلم التالي في مرحلة متأخرة من السياق.

وفيما يلي نص الحلم حرفياً:

«وجدتني ادخل بيتاً أشعرني بالمهابة، اسمه (بيت التماسك الداخلي أو بيت التجمّع الذاتي). وفي اقصى البيت شموع كثيرة، موقدة، ومرتبة بحيث تشكل اربع نقاط هرمية. بالباب يقف رجل عجوز. الناس يدخلون ولا يتحدثون، وفي الغالب يقفون ساكنين، متفكرين، الرجل العجوز الواقف بالباب يحدثني عن زوار البيت قائلاً: (عندما يغادرون يصبحون متطهرين). هأنذا أدخل البيت، وقد بات بوسعي ان اتفكر تماماً. صوت يقول: «ان ما تفعله خطر. ليس الدين ضريبة تدفعها للتخلص من صورة المرأة، فهذه الصورة لا غنى لك عنها. ويل لمن يستبدلون الدين بالجانب الآخر من حياة الروح. لقد ضلّوا سواء السبيل وحلّت عليهم اللعنة. ليس الدين عوضاً من شيء آخر سواه، انه التكملة الأخيرة التي تضاف إلى كل نشاط آخر تبذله الروح. من امتلاء الحياة سوف تلد ديانتك، وعندئذٍ تكون مباركاً). ومع الجملة الأخيرة تُسمع موسيقى خافتة، ألحانٌ بسيطة يعزفها الأرغن تذكرني نوعاً ما بمقطوعة (النار السحرية) لفاغنر. ولما

اغادر البيت اشاهد منظر جبل ملتهب، وأشعر ان النار التي لا تنطفىء لابد وأن تكون ناراً مقدسة».

لقد ترك الحلم في نفس المريض أثراً عميقاً، اذ كان له بمثابة خبرة عميقة بعيدة المدى. كان واحداً من الاختبارات العديدة التي احدثت في موقفه من الحياة والإنسان تغييراً كاملاً.

لا يصعب علينا ان نرى في هذا الحلم موازياً لحلم الكنيسة مع فارق واحد هو ان الكنيسة قد باتت في هذا الحلم «بيتاً للخشوع» أو «التجمع الذاتي». لم يكن فيه اشارة إلى احتفالات، ولا إلى صفة من الصفات التي عرفت بها الكنيسة الكاثوليكية، اللهم إلا الشموع الموقدة التي انتظمت في شكل رمزي قد يكون مستمداً من الديانة الكاثوليكية. كانت الشموع تشكل اربعة اهرامات أو اربع نقاط. وربما كانت هذه الشموع استباقاً لرؤية الجبل الملتهب ذي المظهر الرباعي، التي جاءت في الأخير. على ان ظهور العدد «اربعة» كان ذا طُروء منتظم في احلامه، لعب فيها دوراً بالغ الأهمية. اما النار المقدسة فتشير إلى مسرحية «جان دارك» لبرنار شو، على ما بيّن ذلك الحالم نفسه. وأما «النار التي لا تنطفىء» فصفة اشتهرت بها الألوهة، لا في العهد القديم وحسب وانما في الرمزية الدالة على المسيح في احد الأقوال غير المعتمدة التي جاءت في مواعظ اوريجين: «من اقترب مني فقد اقترب من النار، ومن ابتعد عني فقد ابتعد عن الملكوت». ومنذ ايام هيراقليط، كان يُرمز للحياة بالنار الحية ابداً. وبما ان المسيح قد عرف نفسه بقوله «انا الحياة»، يصبح هذا القول غير المعتمد مفهوماً، لا بل يصبح مصدّقاً. واقتران رمزية النار بمعنى

«الحياة» ينسجم مع إطار الحلم، لأنه يشدد على «ملّء الحياة»، من حيث انه المصدر المشروع الوحيد للدين. وبذلك تعمل النقاط النارية الأربع، بما يشبه دلالة الأيقونة، على حضور الألوهة أو كل فكرة أخرى تضاهيها.

وللتربيع Quaternity تاريخ طويل، ولا يقتصر ظهوره على الإيقونية المسيحية والتأمل المستطيقي (= الصوفي) وحسب، وإنما لعب دوراً كبيراً في الفلسفة الغنوصية، ولعله ظل يلعب هذا الدور منذ ذلك الحين حتى القرن الثامن عشر، مروراً بالعصور الوسطى. وفي الحلم الذي نحن بصدده يظهر التربيع كأهم عنصر في ممارسة العبادة.

يدخل الحالم «بيت التجمع الذاتي» وحيداً، لا يصحبه صديق مثلما كان الحال في حلم الكنيسة، فيلتقي بالرجل العجوز، الذي سبق ظهوره في حلم سابق بوصفه الحكيم الذي عيّن له نقطة على الأرض ينتسب الحالم اليها. لكن سياق الحلم لا يبيّن نوع التطهير المقصود، ولا الشيء الذي يجب التطهر منه. ويبدو ان الطقس الوحيد الذي تم اجراؤه فعلاً كان طقس تفكّر أو تأمل، وهو الذي أفضى إلى ظاهرة الصوت الوجْدية. لقد كان الصوت ذا طروء متكرر في هذه السلسلة من الأحلام، فكان ينطق دائماً بإبانة أو أمر صادر عن ذي سلطان، يتضمن معنى أو حقيقة متعارفاً عليها جداً إلى حدٍ يبعث على الدهشة، أو إشارة فلسفية عميقة. ولقد كاد الصوت ان يكون دائماً بمثابة بيان محدد، يأتي عند اقتراب نهاية الحلم، ويكون من الجلاء وقوة الحجة حتى ليتعذر على الحالم ان يجد حجة تقوى

على دحضه. والحق ان للصوت طابع الحقيقة التي لا تُنازع حتى لتبدو وكأنها خلاصة نهائية صالحة بإطلاق، جاءت بعد تفكير غير شعوري طويل وعقد موازنة فيما بين الحجج. كان يصدر الصوت دائماً عن شخص ذي سلطان: قائد عسكري أو ربّان سفينة أو طبيب عجوز. وكان يأتي احياناً ـ كمثال على هذه الحالة التي نحن بصددها ـ مجرد صوت صادر عن جهة مجهولة، ظاهرياً.

ولعل من الأمور ذات الأهمية الكبيرة ان نرى كيف كان يتأتّى لهذا الإنسان المفكر (الحالم) الشكّاك ان يقبل بهذا الصوت، الذي لم يكن يناسبه غالباً؛ إلا انه قد قبل به مع ذلك، بل قبل به بخضوع وتسليم. وبذلك يسفر الصوت عن نفسه، من خلال بضع مئات الأحلام، التي دوّنها صاحبها تدويناً بالغ العناية، بما هو تمثيل هام، بل حاسم، للخافية.

ولما كان هذا المريض ليس هو الحالة الوحيدة، من الحالات التي اشرفت عليها، التي تعرض ظاهرة الصوت في الأحلام، وفي سواها من الحالات الخاصة من حالات الخافية، تعيّن عليّ التسليم بأن للخافية احياناً ذكاء وغائيّة تفوق ما لدى الواعية منهما. ما من شك في ان هذه الواقعة ظاهرة دينية اساسية نشهدها عند مريض، تكوينُهُ العقلي ابعدُ ما يكون عن انتاج الظاهرات الدينية. ولقد طالما ابديت مثل هذه الملاحظات في حالات أخرى، وينبغي لي ان اعترف بعجزي عن صياغة هذه الوقائع بطريقة أخرى، وكان كثيراً ما يأتيني الاعتراض بأن هذه الأفكار التي يمثلها الصوت ليست غير أفكار صاحب الصوت نفسه. قد يكون الأمر كذلك، لكن الفكرة التي

اسميها فكرتي هي التي اكون «انا» فكرت فيها، تماماً مثلما تكون النقود نقودي عندما اكون «انا» حصلتها أو اكتسبتها، بطريقة قانونية واعية. اما اذا منحني احدهم نقوداً على سبيل الهبة، فلا أقول لمن تفضّل بها عليّ: «شكراً لنقودي!»، ولو كنت اقول لشخص ثالث فيما بعد: «هذه نقودي!». انني، بإزاء الصوت، في مثل هذا الوضع تماماً. فالصوت يمدّني بمضمونات معينة، تماماً مثلما يعرفني صديق بأفكاره. ولا يليق، بل لا يصح، ان أوحي لمن حولي بأن الأفكار التي يقولها هذا الصديق هي افكاري.

لذلك إن بين ما أُنتجه واكتَسبُهُ بجهدي الواعي وما تنتجه الخافية تمييزاً جليّاً لا يحتمل الخطأ. ولعل احدهم يعترض بالقول ان ما تسميه خافيتي ما هو الا عقلي «انا»، فيكون تمييزك بالتالي من نافل القول او لغو الكلام. فأقول: لست على ثقة من ان خافيتي هي عقلي «انا» لأن اصطلاح الخافية يدل على انني غير عارف بها. والحق ان مفهوم الخافية ليس غير افتراض اصطحلنا عليه ابتغاء الملاءمة، ولست أعي، في الحقيقة، بل لست أدري ابداً، من اين ينبعث هذا الصوت. فأنا لست عاجزاً عن انتاج هذه الظاهرة عمداً وحسب، وانما اشعر انني عاجز عن استباق المحتويات النفسية التي يشتمل الصوت عليها. في مثل هذه الأحوال، يكون من قبيل التبجّح القول بأن العامل الذي يحدث الصوت هو عقلي أنا. ان هذا غير دقيق. فإدراكك للصوت في الحلم لا يدل على شيء، لأن في استطاعتك ايضاً ان تسمع في الشارع اصواتاً، ولا تسميها أصواتك مع ذلك ـ ثمة حالة واحدة فقط تستطيع فيها القول بأن الصوت صوتُك، وذلك عندما تعتبر

شخصيّتك الواعية جزءاً من كلّ، او دائرة صغيرة في قلب دائرة اكبر. فقد يعمد كاتب صغير في مصرف، يطوف بصديق حول البلدة، فيدلّ صاحبه على مبنى المصرف قائلاً: «. . . وهذا مصرفي»، مستعملاً نفس الخصوصية.

يمكننا الافتراض بأن الشخصية الإنسانية مكوّنة من شيئين: اولهما، الواعية وما تشتمل عليه. والثاني نفس خافية، خلفية، واسعة بلا حدود. اما الأولى فيمكننا حدّها وتعيينها في شيء من الوضوح، وأما مجمل الشخصية الإنسانية فينبغي أن نسلّم باستحالة وصفها او حدّها تماماً. بكلمة أخرى، هناك إضافة على كل شخصية لا تقبل التعيين ولا الحدّ. وهذه الشخصية مكوّنة من جزء شعوري تتناوله الملاحظة، ولا يشتمل على عوامل معينة نضطر الى افتراضها لكي نفسر وقائع ملاحظة بعينها، ومن جزء غير شعوري يشتمل على عوامل مجهولة تشكّل ما نسميه «الخافية» (اللا شعور). ليس لدينا فكرة عما تتألف منه هذه العوامل، وكل ما نستطيعه إزاءها ان نلاحظ آثارها. فقد نحسبها ذات طبيعة نفسية شبيهة بطبيعة محتويات الواعية، ومع ذلك لا سبيل الى يقين بشأنها. لكن لو تخيّلنا مثل هذه المشابهة، لم نستطع بعد ذلك ان نمسك عن الاستطراد.

لمّا كانت محتويات عقولنا لا تُعرف ولا تُدرك الا بمقدار ارتباطها بـ«الأنيّة» (الأنا)، كانت ظاهرة الصوت ـ بما لها من طابع قوي ـ خليقةً بأن تصدر عن مصدر آخر لا صلة له بمركز «الأنيّة» الواعية، على كل حال. ولقد نبيح لأنفسنا مثل هذا الاستنتاج اذا عرفنا ان «الأنيّة» قد

اخضعتها او احتوتْها نفسٌ فائقة هي مركز شخصية نفسية كلّية، لا تُعيَّن ولا تُحدّ.

انا لا اجد متعة في الجدل الفلسفي الذي يخدعنا عن موضوعنا بما فيه من تعقيدات. لكن حجّتي، برغم غموض فيها، على الأقل محاولة مخلصة لصياغة الوقائع الملاحظة. وإذا عرضنا الموضوع ببساطة قلنا: لما كنّا لا نعرف كل شيء، كان كل اختبار او حادث او موضوع منطوياً على شيء لا نعرفه. من هنا لو تكلمنا عن «كلّية» خبرة ما، لما امكن كلمة «الكلّية» ان تدل الا على الجزء المعلوم من هذه الخبرة. ولمّا كان في غير وسعنا الادعاء باشتمال خبرتنا على «كلّية» الشيء، اتّضح لنا ان «كلّيته» المطلقة لا بد من اشتمالها على ذلك الجزء الذي لم نستطع اختبارَهُ. وهذا يصح على كل خبرة، كما يصح على «النفس» التي تشتمل «كلّيتها» المطلقة على سطح اكبر من سطح الواعية. بعبارة أخرى، ليست النفس استثناءً من القاعدة العامة، التي مفادها: اننا لا نستطيع ان نفهم العالم الا بمقدار ما يتيحه لنا تكويننا النفسي.

لقد برهنت لي خبرتي السيكولوجية، المرّة تلْوَ المرّة، على ان محتويات معينة تصدر عن «نفس» تتمتع بدرجة من الكمال أعلى من الواعية. وأن هذه المحتويات كثيراً ما تنطوي على تحليل او بصيرة أو معرفة ليس في مقدور الواعية ان تنتجها. لمثل هذه الطروءات نستعمل كلمة مناسبة هي «الحدس»، INTUITION، التي ما إن ننطق بها حتى يتقبلها الناس بقبول حسن كما لو أن شيئاً ما قد تمت تسويته تماماً، غير آخذين في الحسبان ان احدنا لا يصنع حدسه، بل ـ على العكس ـ ان الحدس دائماً يأتي عليك، وانك لتحس احساساً غامضاً بأنه قد

انتج نفسه، وأنك لا تستطيع ان تلتقطه الا ان تكون على مبلغ من الذكاء وسرعة البديهة.

يترتب على ذلك اني افسّر الصوت، في حلم البيت المقدّس، صادراً عن شخصية على درجة من الكمال أعلى من نفس الحالم الواعية، التي هي جزء منها. وإني لأذهب الى ان هذا هو الذي جعل الصوت في مرتبة من الذكاء والوضوح اعلى من واعية الحالم في حالتها الراهنة. ولعلّ هذا العلو هو وراء السلطة المطلقة التي يتمتع بها الصوت. لقد تضمنت رسالة الصوت نقداً غريباً لموقف الحالم الذي قام، في حلم الكنيسة، بمحاولة اراد بها التوفيق بين جانبين من الحياة في مصالحة رخيصة. وقد رأينا كيف رفضت المرأة المجهولة (الأنيمة) هذه المصالحة وغادرت المشهد. اما في هذا الحلم فقد حل الصوت محل الأنيمة، ولم يكتف بالاحتجاج العاطفي بل عمد إلى القاء بيان يشتمل على نوعين من الدين، صادر عن جهة لها حق الأمر. وبموجب هذا البيان يكشف الحالم عن ميل الى استبدال الدين بـ«صورة المرأة»، كما يقول النص. والمرأة اشارة الى «الأنيمة». ثبت ذلك من العبارة التي تلتها وفيها حديث عن الدين من حيث استخدامه عوضاً من «الجانب الآخر من حياة الروح». وما الأنيمة الا هذا «الجانب الآخر»، كما اسلفت. فهي التي تمثل الأقلية المؤنثة التي تختبىء تحت عتبة الواعية، وأعني بذلك ما نسميه بـ«الخافية» (اللا شعور). وبذلك يكون النقد كما يلي: «انت تجرّب الدين لكي تهرب من خافيتك، وتتخذه عوضاً من جزء من حياة روحك. لكن الدين ثمرة اكتمال الحياة التي تشتمل على كلا الجانبين، وتتويج لهذا الاكتمال».

لقد أظهرت المقارنة الدقيقة لهذا الحلم مع الأحلام الأخرى،

المنتظمة في هذه السلسلة، بما لا يقبل الخطأ ما هو هذا «الجانب الآخر». كان المريض يحاول دائماً ان يتفادى تلبية احتياجاته العاطفية؛ كان يخشى ان توقعه في اضطراب، زواج مثلاً، او في غير ذلك من المسؤوليات كالحب والشغف والولاء والثقة والتعلق العاطفي والخضوع العام لاحتياجات الروح. فهذه أمور لا صلة لها بالعلم والحياة الأكاديمية، فضلاً عن ان كلمة «روح» إنْ هي إلا فحش فكري يجب الاّ يقترب منه.

ان سر الأنيمة كامن في غمزها من «دين» المريض، الأمر الذي يُربكه إرباكاً شديداً، وهو الذي لم يعرف مَن الدين غير جانبه الاعتقادي وحسب. لقد خيّل إليه ان بإمكان الدين ان يعوّضه من بعض المتطلبات العاطفية غير الملائمة، وأن بإمكانه التفريج عنها بذهابه إلى الكنيسة. لقد انعكست تحاملات عصرنا على الدين انعكاساً ظاهراً في مخاوف الحالم. فالصوت هو، من الناحية الأخرى، زندقة، بل هو مروق الى درجة تزعزعه عن أفكاره: ايجدر به ان يأخذ الدين على مأخذ الجد ويرفعه فوق أعلى ذرى الحياة التي تشتمل على «كلا الجانبين»، ويتنكّر لأعز ما لديه من تحاملات عقلية وفكرية؟ لقد كان هذا بمثابة انقلاب كثيراً ما جعل مريضنا يخاف على عقله الجنون. اما نحن فما نلبث ان نتعاطف معه لوقوعه في هذا المأزق، لأننا نعرف المستوى المتوسط الذي بلغه مفكر اليوم والأمس. وأما هو فيعدّ أخذه لـ«صورة المرأة»، أو بعبارة أخرى، لـ«خافيته»، بالاعتبار الشديد ضربة موجهة الى سلامة فهمه وأمثاله من المتنوّرين.

ما بدأت بمعالجة المريض الا بعد ان تتبّع اول سلسلة من احلامه، وكانت مكونة من نحو ثلاثمائة وخمسين حلماً. عندئذٍ عرفت مجمل التيار المعاكس في تجربته المقلقة. فلا غرو ـ بعد هذا ـ انْ اراد الهرب من مغامرته! لكن ـ لحسن الحَظ ـ كان للرجل «دين»، وأعني بذلك أنه قد «أخذ في الحسبان» خبرته، وكانَ لديه ولاء لهذه الخبرة أتاح له الانجذاب اليها ومتابعتها. لقد كان عُصابُهُ ميزةً عظيمة بالنسبة اليه، لأنه ما من مرة حاول التنكر لخبرته، او تجاهل الصوت، الا وعادت اليه حالته العصابية على الفور. لقد كان عاجزاً عن «إخماد النار»، فكان لا بد له من التسليم بأن لخبرته طابعاً «نيومنوزياً» (روحياً)، لا يمكن الإحاطة به ولا يمكن إدراكه، وكان لا بد من الاعتراف بأن النار التي لا تخمد هي «نار مقدسة»، لقد كان هذا هو الشرط الذي لا مندوحة عنه لشفائه.

وربما اعترض احدهم بالقول: ان هذه حالة استثنائية من حيث ان الكمال البشري استثناء. والحق ان الغالبية العظمى من المثقفين هم شخصيات متجزئة، ولديهم الكثير مما يعوّضون به عن الأطايب الحقيقية. لكن ان يكون المرء كذلك معناه انه معصوب، وهذا ينطبق على عدد كبير من الناس سواه.

ان ما يُطلق عليه اسم «الدين» عادةً وعموماً، ما هو الا تعويض الى درجة تبعث على الدهشة، وإني لأتساءل جاداً ان كان ليس لهذا النوع من «الدين»، الذي اوثر ان اسميه «عقيدة»، وظيفةٌ خطيرة في المجتمع البشري. ان هذا التعويض يرمي الى هدف واضح هو الاستعاضة عن الخبرة المباشرة بجملة من الرموز المناسبة موظفة في

«دغماطيقا» وطقس منظمين تنظيماً مكيناً، تحافظ الكنيسة الكاثوليكية عليهما بما لها من سلطة لا تُنازَع. اما الكنيسة البروتستانتية (ان كان هذا التعبير لم يزل صالحاً) فتحافظ عليهما بالإصرار على الإيمان والرسالة الإنجيلية. وما دام هذان المبدأان فاعلَيْن، كان الناس في أمان وفي حصن حصين من الخبرة الدينية المباشرة. فإذا جرى عليهم شيء مُن هذا القبيل لجأوا الى الكنيسة التي تستطيع التمييز إن كانت خبرتهم آتية من قبل الله او الشيطان، وإن كان يجب قبولها او نبذها.

لقد لقيت في حياتي المهنية كثيراً من الحالات لأناس كان لهم مثل هذه الخبرة المباشرة، وكانوا من الذين لا يخضعون لسلطان قرار دغماطيقي يأتيهم من مرجع ديني. فكان علي أن ارافقهم في منازعاتهم العاطفية وما انطوت عليه من تقلبات، وفي نوبات جنونهم، واختلاطات عقولهم، وانهيارات معنوياتهم التي لا رجاء فيها؛ كانت حالات غريبة ورهيبة في الوقت نفسه حتى لقد بتّ مقتنعاً بما للعقيدة والطقس من اهمية عظيمة، على الأقل بما هما منبعان للصحة العقلية. فكنت إذا جاءني مريض كاثوليكي ممارس نصحت له بالاعتراف والمناولة لكي يدفع عن نفسه غائلة الخبرة المباشرة، التي قد تكون شديدة الوطأة عليه. اما إن جاءني بروتستانتي فما كان امره في العادة ينقضي في مثل هذا السير، لأن العقيدة والطقوس اضحت في البروتستانتية باهتة وخافتة حتى لقد فقدت تأثيرها الى حد بعيد. يضاف الى ذلك ان القاعدة قضت بعدم وجود الاعتراف، وان القسس يسهمون في النفور العام من المشكلات السيكولوجية، وفي الجهل السيكولوجي العام ايضاً، لسوء الحظ. يتمتع «موجّه الضمير»

الكاثوليكي، في الغالب، بمهارة وبصيرة من الناحية السيكولوجية لا يتمتع بها زميله البروتستانتي. يضاف الى ذلك خضوع القسيس البروتستانتي لتدريب علمي في معاهد لاهوتية قضت، بفعل روح النقد، على براءة الإيمان. بينما يستطيع التقليد التاريخي السائد في تدريب الكاهن الكاثوليكي ان يشد من ازر سلطان المؤسسة.

طبعاً، كان بوسعي، وأنا الطبيب، ان اعتنق ما يُسمى بالعقيدة «العلمية» القائلة بأن محتويات العصاب ما هي الا رغبات جنسية مكبوتة او ارادة سيطرة، فأنتقص من شأن هذه المحتويات حتى ليمكنني، الى حدّ معين، ان احصّن عدداً من المرضى من خطر الخبرة المباشرة. لكنني أعلم أن هذه النظرية لا تصلح الا جزئياً، وهذا يعني انها تقتصر على صَوْغ مظاهر سطحية من النفس المعصوبة. وانا لا استطيع ان اقول شيئاً لمرضاي لا أؤمن به تماماً.

هنا قد ينبري أحدهم ويسألني: «لكنك ان كنت تقول للكاثوليكي الممارس ان يذهب الى الكاهن ويعترف، فأنت تقول له شيئاً لا تؤمن به» ـ على اساس انني بروتستانتي المذهب.

للإجابة على هذا السؤال الدقيق أجدني مضطراً للقول انني لا أبشر بمعتقدي كلما وسعني ذلك. ولو سئلت لوقفت في صفّ معتقداتي التي لا تذهب الى ابعد مما اعتبره معرفتي الراهنة. فأنا مقتنع بما أعرف، وكل ما عداه فافتراض، وفيما وراءه اترك اشياء كثيرة الى المجهول، فهي لا تقلقني. لكن ما إن احس ضرورة معرفة شيء عنها حتى يبدأ القلق. فإن كان مريضي مقتنعاً بأن عصابه ذو منشأ

جنسيّ حصراً، لم ازعزع له رأياً، لعلمي ان مثل هذا الاقتناع - خصوصاً إن كان عميق الجذور - يشكل دفاعاً ممتازاً بإزاء انقضاض الغموض الرهيب الذي يكتنف الخبرة المباشرة، ولم اعمد الى تحطيم هذا الدفاع ما دام صالحاً، لعلمي الآ بدّ من وجود اسباب وجيهة تحمل المريض على التفكير في دائرة ضيقة كهذه. اما لو بدأت احلامه تحطّم نظريته الدفاعية، فلا اجد بداً من دعم الشخصية الأرحب، مثلما فعلت في حالة المريض التي تقدم وصفها.

بالطريقة نفسها، وللسبب نفسه، اؤيد افتراض الكاثوليكي الممارس، ما دام هذا الافتراض يعمل لصالحه. وفي جميع الأحوال أؤيد الوسيلة الدفاعية لصد خطر شديد، من دون ان اطرح السؤال الأكاديمي ان كانت هذه الوسيلة الدفاعية تشكل حقيقة شبه نهائية بحد ذاتها. ومما يسعدني ان تكون هذه الوسيلة صالحة وأن تظل كذلك. كان الدفاع الكاثوليكي لدى مريضنا قد تحطّم منذ زمن بعيد حتى قبل ان أباشر حالته. فلو كنت نصحت له بالاعتراف، او بأي شيء من هذا القبيل، لكان ضحك مني مثلما كان يضحك من نظرية الجنس التي لم تكن من الأشياء التي يؤيدها. لقد جعلْتُه يراني اقف الى جانب «الصوت» الذي اتضح لي انه يشكل الجزء الأكبر من شخصيته القادمة، التي قُدّر لها ان تنقذه من أحاديّته.

يرى بعض متوسطي الفكر، ممن يتميزون بعقلانية متنوّرة، في النظرية العلمية التي تبسّط المسائل وسيلة دفاعية عظيمة الجدوى، نظراً لإيمان الإنسان الحديث إيماناً ليس له حدود بكل ما يحمل علامة

«العلمية». فهي سرعان ما تدخل الاطمئنان على القلب بما يكاد يشبه المثل القائل: «قطعت جهيزة قول كل خطيب»*.

اعتقد ان النظرية العلمية، بالغةً ما بلغت من الدقة بحد ذاتها. هي، من منطلق الحقيقة السيكولوجية، اقل قيمة من العقيدة الدينية، لا لشيء الا لأن النظرية بالغة التجريد اضطراراً، وبالغة المعقولية انحصاراً. على حين تعبر «الدغماطيقا» عن كينونة غير معقولة متوسلةً الى ذلك بالصورة. فهذا المنهج يضمن لنا فهماً افضل لحقيقة النفس بما هي حقيقة غير معقولة. زد على ذلك ان العقيدة الدينية مدينة بوجودها وشكلها الى ما يسمى بـ«الخبرة المباشرة» الموحى بها، كالإنسان الإلهي والصليب والولادة العذرية والحبل الطاهر والتثليث وما الى ذلك من جهة، وإلى التآزر غير المنقطع فيما بين عقول كثيرة على مدى قرون كثيرة، من جهة ثانية. ولعل من الأمور غير البيِّنة تماماً ان اطلق على عقائد معينة اسم «الخبرة المباشرة» ما دامت هذه العقائد نفسها تستبعد هذه «الخبرة المباشرة»، ومع ذلك فإن العقائد التي أتيت على ذكرها لا تقتصر على المسيحية وحدها، بل نجدها بنفس المقدار في الأديان الوثنية؛ وهي ـ الى ذلك ـ قد تعود الى الظهور تلقائياً، بما هي ظاهرات نفسية، محمَّلةً بجميع انواع التغاير، لأنها نشأت، في الماضي البعيد، من الرؤى والأحلام وحالات الغيبوبة. هذه الأفكار ليست من اختراع مخترع، بل ظهرت الى الوجود في وقت لم تكن

---

* في الأصل اورد المؤلف مثلاً رومانياً باللاتينية فحواه: «اذا قالت روما كلمتها فقد انحسم الأمر» ولفظه اللاتيني هو:

ROMA LOCUTA CAUSA FINITA

ـ المترجم ـ

البشرية قد تعلمت فيه ان تستخدم العقل استخداماً فعالاً هادفاً. جاءت هذه الأفكار الى الناس قبل ان يتعلموا استخدام الأفكار. لم يفكروا بل ادركوا وظيفتهم العقلية. ان الدغماطيقا، كالحلم، تعكس الفاعلية العفوية والذاتية من النفس الموضوعية، وأعني بها «الخافية» (اللا شعور). ويعتبر صدور مثل هذا التعبير عن الخافية وسيلة دفاع في وجه المزيد من الخبرات المباشرة، وهو أقوى من النظرية العلمية فاعلية وتأثيراً. فهذه تضرب صفحاً عما في الخبرة من قيمة عاطفية. اما الدغماطيقا فهي اكثر شيء تعبيراً عن هذه الناحية. النظرية العلمية سرعان ما تحل محلها نظرية أخرى، اما الدغماطيقا فتدوم قروناً لا تُعدّ. فالإنسان الإلهي المعذب ربما كان له من العمر ما لا يقل عن خمسة آلاف سنة، وربما كان التثليث اقدم عمراً منه.

ويعتبر تمثيل الدغماطيقا للروح اكمل من تمثيل النظرية العلمية لها، لاقتصار النظرية العلمية على التعبير عن الواعية، وعلى صياغتها ليس غير. زد على ذلك ان النظرية لا يسعها غير صياغة شيء حيّ بواسطة المفاهيم المجردة. اما الدغماطيقا فتعبر بجدارة عن سياق الخافية الحية في صيغة دراميّة كالتوبة والذبيحة والفداء.

ومن دواعي الدهشة، من هذه الوجهة من النظر، الا تتوفر إمكانية لتفادي الانشقاق البروتستانتي. لكن البروتستانتية، وقد أضحت عقيدة القبائل الجرمانية المغامرة، المتميزة بروح الفضول والاكتساب واللا مبالاة، كان من الممكن الا يتفق طابعهم الخصوصي مع سلام الكنيسة مدة طويلة على الأقل. ويبدو انهم لم يكونوا على أتم استعداد للحصول على نعمة الخلاص، ولا الإذعان لإله متمثل

في صرح الكنيسة الشامخ. وربما كانت الكنيسة مغالية في الخضوع الى الهيمنة الرومانية او «السلام الروماني»، وكانت هذه الهيمنة، بالنسبة اليهم على الأقل، اكبر من طاقة احتمالهم، فلم يروّضوا انفسهم عليها رياضةً كافية، وما زالوا كذلك. ويخيَّل اليّ انهم كانوا بحاجة الى اختبار الألوهة خبرة غير ملطّفة، بعيدة عن الانضباط، كما يحدث غالباً للمغامرين والقلقين من الشباب الذين يرفضون الخضوع لكل شكل من اشكال المحافظة او الزهد؛ فلم يلبثوا ان خلعوا عنهم رداء الوساطة التي تقوم بها الكنيسة بين الله والإنسان، على تفاوت فيما بينهم. وبسبب من تهديم الأسوار الدفاعية، فقد البروتستانتي تلك الصور المقدسة التي تعبر عن العوامل الخطيرة التي تقبع في أعماق الخافية، كما فقد الطقس الذي كان، منذ اقدم الأزمنة، وسيلة مأمونة للتعامل مع قوى الخافية التي لا حصر لها. وبذلك اضحى قدْرٌ كبير من الطاقة محرراً، انصب من فوره في الأقنية القديمة من الفضول والاكتساب اللذين اضحت بهما اوروبا «ام تنانين» التهمت القسم الأكبر من الأرض.

منذ تلك الأيام والبروتستانتية مرتع للشيع، وفي الوقت نفسه، مرتع للاستزادة من العلوم والتقانيّات التي اجتذبت الواعية البشرية اجتذاباً نسيت معه ما في الخافية من قوى لا تدخل في نطاق الحصر. ان كارثة الحرب العظمى وما اعقبها من أعراض خارقة وعلامات صارخة على اضطرابات عقلية عميقة لم يكن لها بدّ من ان تجعلنا نشك في «ان كل شيء على ما يرام» في عقل الانسان الأبيض. وها نحن أولاء بإزاء مشهد مذهل: دول تدّعي لنفسها ما قد ادّعته

الثيوقراطية في قديم الزمان؛ أعني بذلك الأنظمة «التوتاليتارية» (= الكلية) وما يرافقها من قمع لحرية الرأي. وأناس يحزّون حناجر بعضهم بعضاً انتصاراً لنظريات صبيانية تتعلق بكيفية إقامة فردوس على الأرض. بعد هذا لا يصعب علينا كثيراً ان نرى قوى العالم السفلي ـ بَلْهَ الجحيم ـ التي كان مُرْتَجاً عليها في شيء من الإحكام، وكان يمكن الإفادة منها في تشييد صرْح عقلي شامخ ـ لا يصعب علينا ان نرى هذه القوى وقد راحت تخلق، او تحاول ان تخلق، سوقاً للنخاسة او سجناً ترعاه الحكومات، خالياً من كل سحر روحي او عقلي. في هذه الأيام، لم يعودوا قلةً من باتوا مقتنعين بأن العقل البشري وحده غير قادر على القيام بالمهمة الضخمة الرامية الى التحكّم بالبركان.

هذا التطور في مجمله هو القدر. وهنا لا أريد أن أُنحي باللائمة على البروتستانتية او على عصر النهضة. لكن الشيء الثابت ان الإنسان الحديث، بروتستانتياً كان ام غير بروتستانتي، قد فقد حماية الأسوار الكنسية التي شُيِّدت في عناية بالغة، وتوطّدت دعائمها، منذ ايام الرومان. وبسبب من فقد هذه الحماية بات قريباً من منطقة النار التي ماتني تدمر العالم وتعيد خلقه. لقد اضحت الحياة تجري بسرعة، كما اضحت شديدة التوتر، وقد تسرّب موج القلق والخوف الى عالمنا.

كانت البروتستانتية، ولم تزل، خطراً عظيماً. لكنها، في الوقت نفسه، فرصة عظيمة ايضاً. ولئن ظلّت ماضيةً في التحلل بما هي كنيسة، لقد وُفّقت الى حرمان الإنسان من جميع ضماناته الروحية،

ومن وسائله الدفاعيّة، إزاء جميع ضروب الهمجية التي لا تُصدَّق، ولكنها تحدث مع ذلك في عالمنا الذي نسميه بالمتمدن، وهي جميعها ترتد الى الكائنات البشرية وحالتهم العقلية. انظروا الى وسائل الدمار الشيطانية! انما اخترعها أناس مهذبون تماماً، لا يؤذون احداً، اناس متّزنون، ومواطنون محترمون نتمنى جميعنا ان نكون مثلهم، لكن، عندما ينفجر ذلك كله، ويكون سبباً في اندلاع جحيم من الخراب لا يوصف، لا يبدو ان احداً مسؤول عنه. يحدث هذا بكل بساطة، لكنه مع ذلك من صنع الإنسان.

لكن، لمّا كان كلّنا مقتنعاً قناعة عمياء ان الإنسان ما هو غير واعيته البالغة التواضع، واعيته العديمة الخطر، التي تقوم بوظائفها على نحو دقيق، وتكسب معاشاً معتدلاً، كان كلّنا يجهل ان هذا الجمهور، المنظم تنظيماً عقلياً، الذي ندعوه دولة او أمة، انما تحكمه قوة غير شخصية في الظاهر، قوة لا تُدْرَك لكنها مخيفة، قوة لا يصدّها احد، ولا يحدّها شيء، هذه القوة الرهيبة غالباً ما نفسّرها بأنها الخوف من الأمة المجاورة، التي نزعم ان شيطاناً مارداً قد سيطر عليها. ولما كان كلنا يجهل مأتى السيطرة عليه ومقدارها، كان من ايسر اليسر ان «نُسقط» وضعيتنا الخاصة على جارنا حتى ليغدو من واجبنا المقدس ان نحوز على اضخم المدافع وعلى أفتك الغازات سُمّاً. وأقبح من ذلك كله ان نعتقد بأننا على حق تماماً. في المصحات العقلية حقيقة معروفة جداً: ان المرضى يكونون اشد خطراً في حالات الخوف منهم في حالات الغضب أو الحقد.

أما وقد بات البروتستانتي متروكاً وحيداً امام الله، حيث لا

اعتراف ولا غفران، ولا إمكانية لنوع من أنواع تخفيف حدّة الغضب الإلهي، فقد تعيّن عليه ان يهضم خطاياه وحده، غير واثق تماماً من النعمة الإلهية، التي بات عاجزاً عن بلوغها، لافتقاره الى الطقس المناسب. ولذلك اضحى الضمير البروتستانتي ضميراً يقظاً وخبيثاً، بعد ان اكتسب ميلاً مقيتاً الى الأناة وازعاج للناس. وبفضل ذلك اتيحت للبروتستانتي فرصة فريدة ادرك بها الإثم ادراكاً لا ترقى اليه العقلية الكاثوليكية، ذلك ان الاعتراف والغفران ماثلان ابداً لتخفيف حدّة التوتر. اما البروتستانتي فمتروك الى توتّره القمين بشحذ ضميره. والضمير، ولاسيما الضمير الخبيث، قد يغدو نعمة حقيقية، اذا ما استخدمناه أداة للنقد الذاتي. والنقد الذاتي، بما هو فعالية استبطانية مميزة، امر لا غنى عنه في كل محاولة يقوم بها المرء لفهم كيانه النفسي. فإن انت فعلت ما يضايقك، وتساءلت عما حداك الى فعله، فأنت بحاجة الى ضمير خبيث وما يتمتع به من ملكة تمييز مناسبة لكي تكتشف الدافع الحقيقي لفعلتك، وعندئذٍ تستطيع معرفة الدوافع التي تحكم احتياجاتك. فوخزة الضمير الخبيث تحفزك على اكتشاف الأشياء التي كانت قابعة في اعماق خافيتك من قبل، فتجتاز عتبة الواعية، فتعرف القوى غير الشخصية التي جعلت منك أداة غير واعية يستخدمها كل ما هو قتّال في الإنسان. فلو بقي البروتستانتي، بعد فقدانه الكنيسة تماماً، على بروتستانتيته، انساناً اعزل امام الله، عاطلاً من الدروع الواقية، من اسوار وجماعات، لم يبق امامه غير فرصة روحية وحيدة؛ الا وهي الخبرة الدينية المباشرة.

لست ادري إن كنت وُفّقت الى ابلاغ المريض ماذا يعنيه اختبار

الخافية (اللا شعور). ومهما يكن من أمر فليس هناك مقياس موضوعي نستطيع بواسطته ان نقوّم مثل هذا الاختبار، وما علينا الا ان نقبله بما يستحقه عند صاحبه. فأنت قد يأخذك العجب مأخذاً عظيماً إن كان العبث البادي في احلام معيّنة قد يعني لك شيئاً. لكنك ان لم تستطع ان تقبل بأقواله، او لم تستطع ان تضع نفسك في مكانه، فيجب عليك الاّ تحكم على حالته. فالعبقرية الدينية ريح تهبّ الى حيث يقرّ قرارها، وليس هناك مرتكز خارجي تستطيع منه الحكم عليها، ما دامت النفس غير متميزة عن ظهورها. فالنفس هي، في الوقت نفسه، موضوع وذات في السيكولوجيا، ولا مفر من هذه الحقيقة.

والأحلام القليلة التي تخيّرتها مثالاً على «الخبرة المباشرة» لا تظهر إلا للعين الخبيرة؛ فهي لا تعرض علينا مسرحاً، لأنها اكثر الشهود تواضعاً على خبرة فردية ليس غير. ولو استطيع عرضها متتابعة، جملةً مع تلك الثروة من المادة الرمزية التي نتجت على مدى السياق كله، لتشكل منها ملامح بارزة. لكن، حتى مجمل سلسلة الأحلام لا يمكنه ان يضاهي، جمالاً وتعبيراً، جزءاً واحداً من اجزاء العقيدة التقليدية؛ ذلك ان العقيدة هي دائماً ما أنتجته وأثمرت عنه عقول كثيرة على مدى قرون كثيرة، فتطهرت من جميع الغرائب والعيوب والنواقص التي تجلبها الخبرة الفردية. لكن، برغم ذلك كله، فالخبرة الفردية ـ على فقرها الشديد ـ ما هي إلا حياة فردية، والدم الدافىء القاني النابض، اليوم. فهي، للباحث عن الحقيقة، أقْنَعُ من خير تقليد. لكن الحياة المباشرة حياة فردية ابداً، لأن صاحبها هو الفرد، وكل ما يصدر عن الفرد فرد من وجه ما، انتقالي وناقص؛ وهو يكون كذلك

ـ على وجه الخصوص ـ ان كانت المسائل مسألة نتاجات عقلية غير إرادية كالأحلام وما يماثلها. لن يرى احد آخر نفس الأحلام رغم ان الكثيرين يُعانون من نفس المشكلة. وكما انه لا يوجد فرد يتميز بفردانية مطلقة، كذلك لا توجد نتاجات فردية من نوع فرداني مطلق، حتى الأحلام تصوغها مادة جماعية على أرفع درجة، تماماً مثلما تُستعاد موضوعات معينة بما يشبه ان يكون شكلاً متماثلاً، كما هو الشأن في الميثولوجيا والفولكلور عند مختلف الأقوام. ولقد اطلقت على هذه الموضوعات اسم النماذج البدئية archetypes، وأريد بها اشكالاً أو صوراً ذات طبيعة جماعية تحدث في جميع انحاء العالم بما هي مكوّنات الأساطير، وفي الوقت نفسه نواتج فردية اصلية تستمد جذورها من الخافية (= اللاشعور). ولعل هذه الموضوعات الأولية تنطلق من الصيغ الأولية التي صاغها العقل البشري أو صاغتْه لأول مرة عند انبثاق فجر الوعي، وهي لا تنتقل بالتواتر والرواية وحسب، وإنما بالوراثة ايضاً. والغرض الأخير لا غنى عنه مادام بالإمكان استعادة الصور البدْئية تلقائياً من دون نقل مباشر محتمل.

ان نظرية الأفكار البدْئية، قبل ـ الشعورية، ليست من اختراعي انا، كما يدل على ذلك اصطلاح النموذج البدْئي archetype، الذي يرجع إلى القرون المسيحية الأولى. ومع اشارة خاصة إلى علم النفس، نجد هذه النظرية في اعمال «ادولف باستيان»، ثم في اعمال نيتشه ايضاً، وفي الأدب الفرنسي نجد افكاراً مماثلة لها عند كل من «هوبرت»، و، «موس»، و، «لاوي بروهل». وان ما اسهمت به اقتصر على إعطاء الأساس التجريبي لنظرية كانت تدعى، فيما مضى،

افكاراً بدْئية أو اوّلية، «مقولات أو فئات»، CATEGORIES ، أو، «عادات موجهة للضمير»، أو، «تمثيلات جماعية» الخ . . . ، وذلك بقيامي بأبحاث معينة ذا صفة تفصيلية .

في الحلم الثاني الذي بحثناه من قبل، صادَفْنا نموذج بدْئي لم آخذه بالاعتبار حتى الآن . ذلك هو الترتيب الخاص للشموع الموقدة على شكل نقاط شبيهة بالهرم . يثبت لنا هذا الترتيب ما للعدد «اربعة» من اهمية رمزية، من حيث وضعه في محل المذبح أو في محل قاعدة الإيقونة، حيث يتوقع المرء ان يلقى الصور المقدسة . ولما كان اسم المعبد «بيت التجمع الذاتي»، كان من حقنا ان نذهب إلى ان هذه الصفة قد عبرت عنها الصورة أو الرمز الذي ظهر في مكان العبادة . ان الرباعي، أو «التتراكتس»، tetraktys ، بحسب الاصطلاح الفيثاغوري، يشير فعلاً إلى «التجمع الذاتي»، كما يظهر ذلك جلياً في حلم المريض . وكان من شيمة هذا الرمز ان يظهر، في احلام أخرى، دائرةً مقسمةً اربعةَ أقسام أو محتوية على أربعة أقسام، وأن يتخذ، في احلام أخرى ومن نفس السلسلة، شكل دائرة غير مقسمة، أو زهرة، أو مكان مربع، أو حُجرة، أو مربع الزوايا، أو ساعة، أو حديقة متناسقة ذات نافورة في الوسط، أو أربعة اشخاص في قارب أو طائرة أو طاولة، أو أربعة كراس حول طاولة، أو أربعة الوان أو دولاب بثمانية أشعة، أو نجم أو شمس بثمانية اشعة، أو دب بأربع أعْين، أو زنزانة مربعة في سجن، أو الفصول الأربعة، أو طاسة فيها أربع جوْزات، أو مِزْولة (= ساعة زوالية) ذات قرص مقسم إلى ٤ × ٨ = ٣٢ قسماً، وهكذا دواليك .

لم يكن طروء هذه الرموز الرباعية ليقل عن احدى وسبعين مرة في سلسلة مؤلفة من اربعمائة حلم. ولا تشكل الحالة، التي نحن بصددها، استثناء من هذه الناحية. فلقد راقبت حالات كثيرة طرأ فيها الرقم «اربعة»، وكان طروءه دوماً ناشئاً عن الخافية؛ وأعني بذلك ان صاحبه قد حلم به من دون ان تكون لديه فكرة عن معناه، ومن دون ان يكون سمع بالأهمية الرمزية التي يمثلها الرقم «اربعة» من قبل. ولعل الأمر يختلف تماماً بالنسبة للرقم «ثلاثة»، لأن هذا يمثل رقماً رمزياً معترفاً به، وهو في متناول كل إنسان. لكن الرقم «اربعة»، وخصوصاً بالنسبة إلى عالم حديث، لا يوحي له بأكثر مما يوحيه كل رقم آخر. ذلك ان رمزية هذا الرقم وتاريخه التليد ميدان معرفة يتجاوز اهتمامات الحالم تجاوزاً بعيداً. لذلك يحق لنا، في مثل هذه الحالات، اذا ألحت الأحلام على اهمية الرقم «اربعة»، ان نردّ منشأه إلى الخافية. هذا، ولما كانت السمة الإلهية للتربيع واضحة في الحلم الثاني، تعيّن علينا ان نستنتج بأنه يشير إلى معنى ينبغي لنا ان نصفه بـ «القُدْسيّة». ولما كان ليس في وسع الحالم ان يستقصي هذه السمة في مصادر الواعية، كان عليّ ان اعتمد منهج المقارنة لكي ابيّن معنى هذا الرمز. وإنه ليتعذر عليّ، بطبيعة الحال، ان اقدم معلومات ضافية عن هذا السياق المقارن في نطاق هذا الكتاب. لذلك رأيت الاقتصار على إيراد إلماعات ليس غير.

بما ان الكثير مما تحتويه الخافية هو من بقايا حالات عقلية تاريخية، ما علينا إلا ان نرجع القهقرى إلى بضع مئات السنين لكي نبلغ ذلك المستوى من الواعية الذي يوازي محتويات الخافية. وفي

الحالة التي نحن بصددها الآن ما نكاد نرجع ثلاثمائة سنة إلى الوراء حتى نجد انفسنا وسط علماء وفلاسفة انصرفوا كلياً إلى البحث عن سر الدوائر الرباعية. لقد كانت هذه المشكلة المستعصية بحد ذاتها إسقاطاً سيكولوجياً لأشياء ذات طبيعة خافية، أو غير شعورية، اقدم وأتمّ. لكنهم كانوا في تلك الأيام يعلمون ان الدائرة تعني الألوهة.

«الله كائن يدركه العقل كما لو أنه دائرة مركزها في كل مكان ومحيطها ليس في مكان»، كما قال ذلك «امرسون» مقتبساً عن القديس اوغسطين. وان امرءاً بلغ من الانطواء والتعمق ما بلغه «امرسون» لا يمكنه إلا ان يصيب نفس الفكرة وان يستشهد كذلك بالقديس اوغسطين. لقد كانت صورة الدائرة - بما هي اكمل شيء منذ ما وضع افلاطون كتابه «تيماوس» الذي يعد المرجع الأول للفلسفة الهرمزية - تعطى ايضاً لأكمل انواع الجواهر، وللذهب، وللروح الدنيوي أو الروح الطبيعي الوسيط، ولأول نور مخلوق. ولما كان العالم الأكبر قد صنعه الخالق «على شكل دائري كروي»، كان اصغر جزء من الكل، وهو النقطة، يحتوي ايضاً على هذه الطبيعة الكاملة. وكما قال احد الفلاسفة ايضاً: «الدائرة ابسط الأشكال وأكملها لأنها ترتكز على النقطة».

هذه الصورة للألوهة، الهاجعة والمختبئة في المادة، هي ما قد أطلق عليه اهل السيمياء اسم «العماء الأصلي»، أو، «ارض الفردوس»، أو، «السمكة المستديرة في البحر»، أو، «الدائرة»، أو، «البيضة» ليس غير. لقد كان ذلك الشيء المستدير يملك مفتاحاً يفك اقفال ابواب المادة المغلقة. وكما جاء في «تيماوس»، كان الصانع

وحده، وهو الكائن الأكمل، هو القادر على حل الرباعي إلى عناصره الأربعة التي يحتضنها، وهي العناصر التي يتكوّن منها العالم الدائري. وجاء في احد المؤلفات الكبيرة من القرن الثالث عشر، وهو الكتاب الذي بعنوان «جمهرة الفلاسفة»، ان بوسع الدائرة ان تحلّ النحاس إلى اربعة. وكذلك الذهب، الذي سعى اليه الفلاسفة، كان دائرياً ايضاً.

انقسمت الآراء حول الإجراء الذي يمكن بواسطته العثور على الصانع الهاجع؛ فقد كان بعضهم يرجو ان يمسك به وهو في شكل مادة اولية ذات تركيز خاص، أو نوع حاذق من المادة على نحو مخصوص. وكان بعضهم الآخر يبذل جهداً لإيجاد الجوهر الدائري بواسطة نوع من التركيب يدعى «المزاوجة». يقول المؤلف المجهول لكتاب «حجر الفلاسفة»: «اصنع دائرة مكوّرة من رجل وامرأة، ثم اجعل منها مربعاً، ومن المربع مثلثاً، ثم كوّر الدائرة، تحصل على حجر الفلاسفة». لقد كان هذا الحجر العجيب رمزاً على الكائن الحي الكامل ذي الطبيعة الخنثوية، الذي ينطبق على إنسان امبدوقليس مثلما ينطبق على إنسان افلاطون الكلّي الاستدارة، الثنائي الجنس. ونحن لو رجعنا إلى مطلع القرن الرابع عشر، لوجدنا بطرس الصالح يقرن حجر اللازورد بالمسيح، بما هو تمثيل له. لكننا نجد في «أوريا هورا»، وهو الأثر الذي يُنسب إلى توما الإكويني وما هو له، اسراراً تضاهي اسرار الديانة المسيحية.

وإنما جئت على ذكر هذه الوقائع لكي ابيّن ان الدائرة، أو الكرة المربعة، كانت تعني الألوهة لعدد غير قليل من العلماء من أسلافنا. كذلك يتضح من الآثار اللاتينيّة ان الصانع الهاجع المختبىء في المادة

كان يتواحد مع ما يسمى بالإنسان الفيلسوف، آدم الثاني. وهذا الأخير هو الإنسان الروحي الأعلى، آدم القدمون، الذي كثيراً ما يتواحد بالمسيح. لكن حين كان آدم الأصلي كائناً فانياً لأنه مكوَّن من العناصر الأربعة الفاسدة، كان آدم الثاني كائناً خالداً، لأنه مكوّن من جوهر نقي لا تناله يد البلى. وهكذا يقول الذي انتحل لنفسه اسم توما الأكويني: «ان آدم الثاني مكوّن من العناصر النقية في الأبدية. ولذلك، وبما انه مكوّن من جوهر بسيط نقي، هو باق إلى الأبد». وفي القرون الوسطى تُرجم أثر عربي إلى اللاتينية تحت اسم SENIOR، وكان يتمتع بشهرة واسعة، وكان يُرجع اليه في شأن حجر اللازورد بالقول: «يوجد جوهر واحد لا يموت ابداً، لأنه في ازدياد مطّرد». هذا الجوهر هو آدم الثاني.

واضح من هذه الشواهد ان الجوهر الدائري، الذي كان طَلِبةَ الفلاسفة، هو «إسقاط» ذو طبيعة مماثلة لرمزية احلامنا. ولدينا من الوثائق التاريخية ما يثبت ان الأحلام والرؤى، بل حتى الهلوسات، كثيراً ما اختلطت بالعمل الفلسفي العظيم. لقد كان اسلافنا، بما لهم من تكوين عقلي ساذج، يسقطون ما تنطوي عليه خافيتهم مباشرة على المادة، ولم يكن شيء ايسر على المادة من الاستجابة لمثل هذه الإسقاطات، لأنها كانت في ذلك الحين مجهولة تقريباً، وغير مفهومة. وكلما صادف الإنسان شيئاً غامضاً اتم غموض، اسقط عليه ظنونه دون ادنى قدر من النقد الذاتي. ولكن، بما ان المادة الكيمياوية قد أضحت، في هذه الأيام، شيئاً معروفاً لنا معرفة تقارب الجودة، لم يعد في وسعنا ان نسقط على اشيائها ما تنطوي عليه خافيتنا على نفس

الـدرجة من الترخّص الذي كان اجدادنا يُسقطون به عليها. وينبغي لنا، اخيراً، ان نسلّم بأن الرباعي شأن نفسي، ومازلنا نجهل ما اذا كان هذا ليس نوعاً من الإسقاط ايضاً سوف تثبته الأيام في المستقبل غير القـريب. لكن، حسْبنـا في الوقت الحاضر ان نقول ان فكرة الله، المغيّبة تماماً عن واعية الإنسان الحديث، انما ترجع الينا في شكلها الذي كانت معروفة به معرفةً واعية قبل ثلاثمائة أو اربعمائة سنة.

غنيّ عن التوكيد ان هذه النبذة التاريخية كان يجهلها صاحب الحلم جهلاً تاماً، ولعلنا نستطيع القول مستشهدين بشاعر كلاسيكي في قوله:

«تستطيع ان تذرو الطبيعة بالمذراة، لكنها ما تلبث حتى تعود اليك».

(هوراس)

كانت فكـرة اولئـك الفـلاسفة القدماء ان الله تجلّى في خلق العنـاصـر الأربعـة، وكـانـوا يرمـزون إلى هذه الفكرة بأقسام الدائرة الأربعة، هكذا نقرأ لأحد الأقباط الغنوصيين عن المولود الوحيد:

«هذا هو نفسه الذي يسكن الجوهر الفرد، ويكون في الخالق، الذي جاء من مكان لا يدري أحد اين هو. . . منه جاء الجوهر الفرد على شكل سفينة محملة بجميع الأطايب، وعلى شكل حقل حافل بجميع اجناس البشر. . . وعند حجابه الذي يحيط به كسُوْرٍ يوجد اثنتا عشرة بوابة. . . هذا هو نفسه المدينة ـ الأم للمولود الوحيد».

وفي مكـان آخـر يكون «الأنثروبوس» (= الإنسان البدْئي) هو المـدينة وأطرافه الأربعة بوّاباتها. والجوهر الفرد ما هو إلا شرارة من

نور، وذرة من الألوهة. والمظنون ان «المولود الجديد» يقف على سدّة قائمة على اربعة اعمدة تطابق اناجيل المسيحية الأربعة، أو الرابوع TETRAMORPHUS ، المسطيّة الرمزية للكنيسة، الذين يتكون من الانجيليين الأربعة: الملاك، والنسر، والثور أو العجل، والأسد. التشابه واضح بين هذا النص وبين الوحي في اورشليم الجديدة.

لقد دأب الفلاسفة القدماء على الاهتمام بالتقسيم إلى أربعة، وبالتركيب من اربعة، والتجلّي الخارق للألوان الأربعة وهي: الأسود، والأبيض، والأحمر، والأصفر؛ وبمراحل العمل الأربع*. لأن «الأربعة» ترمز إلى اجزاء الواحد وصفاته وتجليّاته. لكن لماذا يكرر مريضنا هذه التأملات القديمة؟ لا أدري لِمَ يفعل ذلك، انما الذي اعلمه ان هذه ليست حالة مفردة؛ فهناك حالات كثيرة اشرفت عليها، أو أشرف عليها زملاء لي، انتجت الرمزية عينها بصورة عفوية. وما أظن ان اصحابها قد حصلوا عليها منذ ثلاثمائة أو اربعمائة سنة خلَتْ. فقد كان ذلك العصر زمناً آخر نوعاً ما، حين كانت هذه الأفكار النموذجية نفسها تحتل موقع الواجهة. والحق انها اقدم من العصور الوسطى، كما يثبت ذلك «تيماوس». لا، ولا هي كلاسيكية أو متحدّرة الينا من الإرث الفرعوني، بما هي موجودة في كل مكان وفي كل عصر. وما على المرء إلا ان يتذكر، على سبيل المثال، ما ينسبه الهنود الحمر من اهمية عظيمة إلى «الرابوع».

---

* لعل المقصود من مراحل العمل الأربع الفعل الإرادي الذي ينقسم الى: تصور الهدف، التصميم، التقرير، التنفيذ.
- المترجم -

مع ان «الأربعة» رمز قديم، ولعله يرجع إلى ما قبل التاريخ، نجده دائماً مقروناً بفكرة الألوهة الخالقة للعالم، إلا انه ـ ويالللغرابة ـ قلما يفهمه كذلك المعاصرون الذين يطرأ عليهم. لقد كنت دائماً مهتماً، من الناحية العملية، بأن أرى كيف يفسره الناس لأنفسهم، اذا تُركوا إلى وسائلهم الخاصة ولم يُحاطوا علماً بتاريخ هذا الرمز. وكنت حريصاً الأ ازعجهم بآرائي الخاصة فوجدتهم بعامة يعتبرونه رمزاً إلى انفسهم أو إلى شيء ما في انفسهم. كانوا يشعرون انه ينتمي إلى انفسهم انتماء حميماً، نوعاً من الخلفيّة المبدعة، أو شمساً تنتج الحياة في اعماق الخافية. بالرغم انه كان من السهل جداً ان يراد فيه مطابقة شبه تامة مع رؤيا حزقيال، لقد كانوا نادراً ما يدركون هذا الشبه، حتى حين يصبحون عارفين بالرؤيا ـ تلك المعرفة التي اضحت، بالمناسبة، نادرة جداً في هذه الأيام. ما يمكننا ان نسميه بالعمى المنظم إنْ هو إلا أثر من آثار الانحياز الناشيء عن الزعم بأن الألوهة خارج الأنسان. ومع ان هذا الانحياز غير قاصر على المسيحية، إلا ان هناك اديانا معينة لا تشاركها فيه ابداً. بل ـ على العكس ـ تصر، كما يصر صوفية مسيحيون معينون، على الوحدة الجوهرية بين الله والإنسان، سواء اكانت في صيغةِ وحدةٍ بَدَريّة apriori ، ام كانت هدفاً يسعون إليه بواسطة ممارسات معينة أو مُسارّات معينة على نحو ما نعرفه، مثلاً، في تحولات «ابو ليوس»، ناهيك عن بعض الطرائق المعروفة في «اليوغا».

لا شك ان اعتماد منهج المقارنة يُظهر الرباعي بما هو تمثيل مباشر، تقريباً، لله المتجلّي في خلقه. لذلك يمكننا القول بأن الرمز،

الـذي يحدث عفواً في احلام انسان هذا العصر، انما يعني الشيء نفسه ـ الله في الداخل. ومع ان غالبية اصحاب الحالات يدركون هذا الشبه، إلا ان التفسير قد يكون صحيحاً. فإذا اخذنا بالاعتبار ان فكرة الله هي فَرَضيّة «منافية للعلم»، استطعنا في يسر ان نفسر اسباب نسيان الناس ان ينسجوا افكارهم على مثل هذا المنوال. وهم حتى لو كان عندهم قدْر معين من الإيمان بالله، لَرَدَعَتْهم ثقافتهم الدينية عن فكرة ان الله في الـداخـل، التي طالمـا نددت بهـذه الفكرة بما هي فكرة «مستـطيقية» (= صوفية). ومـع ذلك فهذه الفكرة «المستطيقية» هي بالضبط الفكرة التي فرضتها الاتجاهات الطبيعية الصادرة عن الخافية. لقد شاهدت بنفسي، كما شاهد زملاء لي، حالات كثيرة تكشفت عن نفس النوع من الرمزية حتى لا نستطيع ان نشك في وجودها بعد الآن. يضاف إلى ذلك ان ملاحظاتي ترجع إلى عام ١٩١٤، وقد انتظرت اربعة عشر عاماً حتى أَلْمعْتُ اليها علانيةً.

ولعل من فادح الخطأ ان يفهم امرؤ من ملاحظاتي اني اريد بها نوعاً من البرهان على وجود الله. انها لا تبرهن إلا على وجود صورة نمـوذجية للألـوهـة؛ وهي، في نظري، اقصى ما نستـطيع إثبـاتـه سيكولوجياً فيما يتعلق بوجود الله. لكن، بما ان هذا النموذج البدئي كبير الأهمية والأثر، كان طروءه المتعاقب نسبياً حقيقة جديرة بالاعتبار في كل «لاهوت طبيعي». وبما ان اختبارنا له غالباً ما يكون على درجة عالية من الروحية، جاء تصنيفنا له بين الاختبارات الدينية.

لا استطيع إلا ان الفت الانتباه إلى حقيقة هامة: بينما يحتل رمز الثالوث موقعاً مركزياً في المسيحية، تأتي صيغة الخافية على شكل

«رابـوع». والحق ان الصيغـة المسيحية، حتى الصحيحة تقليدياً، ليست بالصيغـة المكتملة تماماً، لأن الجانب الدغماطيقي من مبدأ الشر غائب عن الثالوث، باعتبار ان الرابوع يفضي إلى وجود يبعث شيئاً من الارتباك بما هو الشيطان. ولما كان القول بإله متواحد بالإنسان قول زنـديق، كانت فكـرة «الله في الـداخل» صعبة التبنّي ايضاً من الوجهة الـدغمـاطيقية. لكن الرابوع، كما فهمه العقل الحديث، لا يوحي بـ «الله في الداخل» وحسب، وإنما بتواحد بين الله والإنسان ايضاً. خلافـاً للدغماطيق، لا يوجد ثلاثة أوجه للألوهة، بل أربعة. ولعلنا نستطيع في يُسْرٍ ان نستنتج ان الرابع انما يمثل الشيطان. وبالرغم من قول المسيح: «انا والآب واحد. من رآني رأى الآب»، ربما يُعدّ من قبيل التجـديف أو الجنون ان نبالغ في بشرية المسيح الدغماطيقية مبالغةً يستطيع معها الإنسان ان يواحد نفسه بالمسيح وما فيه من وحدة جوهـرية HOMOOUSIA بينـه وبين الآب. لكنّ هذا هو الاستنتـاج تحديداً. لذلك كان بالإمكان ان يُوصَم الرابوع، من منطلق صحيح تقليدياً، بأنـه «خـدعة من الشيطان»، وأكبر الدليل على ذلك تمثل الـوجه الرابع بالجانب المرفوض من الكون المسيحي. وما احسب الكنيسـة إلا مُحْبِطةً كل محاولة جادّة للوصول إلى مثل هذه النتائج، بل ما احسبهـا إلا شاجبـةً كل اقتراب من هذه الاختبارات، مادامت لا تستـطيع التسليم بأن الطبيعة تجمع ما قد فرّقته الكنيسة. ان صوت الطبيعة مسموع جداً في كل الحوادث التي تتصل بالرباعي، وهذا ما يبعث جميع الشكوك القديمة في كل ما له صلة بعالم الخافية. لقد كان الكشف العلمي عن الأحلام نوعاً من «قراءة البخت» ONEI-ROMANCY، وهي موضع اعتراض الكنيسة، كالسيمياء سواء بسواء.

اننا نستطيع ان نجد في الآثار السيميائية اللاتينية موازياتٍ قريبة من سيكولوجية الأحلام، لكنها كالأحلام حافلة بالهرطقة. وعلى ما يبدو كان ثمة اسباب وجيهة حملت أولئك «الهراطقة» على التستر واصطناع التقيّة. لقد كانت الإبانات الرمزية في السيمياء القديمة تصدر عن نفس الخافية التي تصدر عنها الأحلام الحديثة، وهي صوت الطبيعة مثلها تماماً.

لو كنا لم نزل نعيش في وضع القرون الوسطى، حين لم يكن كثير من الشكوك يكتنف الأشياء النهائية، وحين كان تاريخ العالم يبدأ بسفر التكوين، لكنا استطعنا في يسر ان نطرح جانباً الأحلامَ وما أشبهها. لكننا ـ لسوء الحظ ـ نعيش في وضع حديث، باتت فيه الأشياء النهائية اموراً مشكوكاً فيها، وأصبحت فيه عصور ما قبل التاريخ تمتد بلا حدود، والناس عارفين بأن الخبرة الروحية لو وجدت اصلاً لكانت هي خبرة النفس PSYCHE. لم يعد بمقدورنا ان نتصور سماء عليا تدور حول عرش الله، كذلك لم يعد بمقدورنا ان نحلم بالبحث عن الله في مكان ما خارج المجرّات. لكن، يبدو ان الروح البشري ينطوي على اسرار لا حصر لها، والخبرة الدينية في نظر التجريبي ترتد كلها إلى حالة خاصة من العقل. ولو اردنا ان نعرف شيئاً عما تعنيه الخبرة الدينية لمن يختبرونها، لكان لنا في هذه الأيام كل فرصة ممكنة لدراسة كل صيغة يمكننا ان نتصورها. وهي إن كانت تعني شيئاً على الإطلاق، فإنما تعني كل شيء لمن يختبرونها. هذه، على الأقل، هي النتيجة التي لابد لنا من الوصول اليها بعد درس دقيق نجريه على دليل الخبرة. ولعلنا نستطيع ان نعرّف الخبرة الدينية كما

نعرّف ذلك النوع من الخبرة التي تتميز بأعلى درجات التذوق، دونما التفاتٍ إلى محتوياتها. العقلية الحديثة، بمقدار ما كانت صياغتها على مقتضى الرأي القائل بأنْ «لا سلام خارج الكنيسة»، سوف تعود إلى الروح كآخر أمل لها. اين يمكننا ان نحصل على هذه الخبرة في غير هذا المكان؟ لسوف يكون الجواب شيئاً قريباً من الذي وصفت. ان صوت الطبيعة هو الذي سوف يتولّى الجواب، وكل الذين يُعْنون بالمسألة الروحية سوف يصادفون مسائل تبعث على الحيرة. من خلال الحاجة الروحية لمرضاي كنت أُضطر إلى القيام بمحاولة جادة لعلّي افهم شيئاً مما تنطوي عليه الرمزية التي تحدثها الخافية. ولما كان البحث في الآثار الفكرية والأخلاقية يخرجنا عن الصدد، رأيت الاقتصار على مجرد الإشارة.

تعبر الأشكال الرمزية الرئيسية في ديانة ما، تعبر دائماً عن الموقف العقلي والأخلاقي الذي تشتمل عليه. اذكر، على سبيل المثال، الصليب ومعانيه الدينية المتنوعة. واذكر ايضاً رمزاً رئيسياً آخر هو الثالوث، وهو ذو صفة مذكرة حصراً. غير ان الخافية تحوله إلى «رابوع»، باعتباره وحدة في نفس الوقت، تماماً كما ان الاشخاص الثلاثة في الثالوث إله واحد. لقد كان فلاسفة الطبيعة الأقدمون يمثلون الثالوث، بمقدار ما هو متصوَّر في الطبيعة، بالروح SPIRITUS أو الطيّار VOLATILIA، أي الماء والهواء والنار. اما العنصر الرابع (التراب) فهو الأرض أو الجسد. وكانوا يمثلون الأرض بالعذراء. وبذلك أضافوا العنصر المؤنث إلى الثالوث الطبيعي، فأحدثوا الرابوع أو الدائرة المربّعة التي كانت رمزاً للابن الخنثي، أو الابن العاقل.

ولاشك ان فلاسفة الطبيعة في القرون الوسطى كانوا يقصدون بالعنصر الرابع الأرض والمرأة. لم يكن مبدأ الشر مذكوراً صراحةً، بل كان يبدو في الصفة السمّيّة التي تتصف بها المادة الأولية وفي اشارات اخرى. ان الرابوع في الأحلام الحديثة هو من نتاج الخافية. وكما بيّنت في الفصل الأول، غالباً ما يأتي تشخيص الخافية بالأنيمة، وهي الشكل المؤنث ومن الواضح ان رمز الرابوع يصدر عنها، فهي رحم الرابوع، أو الإلهة الأم، تماماً مثلما كانت تعتبر الأرض «ام الله». لكن، لما كانت المرأة والشر مستبعديْن من الألوهة في عقيدة التثليث، كان عنصر الشر ايضاً يشكل جزءاً من الرمز الديني ان كان لهذا الأخير ان يكون تربيعاً. لا حاجة إلى جهد خاص من التخيل لكي نتنبأ بالنتيجة البعيدة المدى التي سوف يسفر عنها مثل هذا التطور.

رمز طبيعي: تاريخ وسيكولوجيّة

مع اني لا اريد الحيلولة دون البحث الفلسفي، افضل الاّ أسْهب في بحث الجوانب الأخلاقية والفكرية من المشكلة التي يثيرها الرمز التربيعي، أو الرابوع. فآثاره السيكولوجية بعيدة المدى وحافلة بالمعنى، وتلعب دوراً كبيراً في المعالجة التطبيقية. وبما أني غير مَعْنيٍ هنا بعلم العلاج النفسي، بل بالجانب الديني من الظاهرات النفسية، اضطررت في اثناء دراساتي في علم الأمراض النفسية إلى التنقيب عن الرموز والأشكال التاريخية وأنفض عنها الغبار. وما كان ليخامرني شعور، بعد تخرّجي طبيباً للأمراض العقلية، بأنني سوف اقوم بذلك. لذلك لا ارى بأساً ان يبدو هذا البحث المستفيض في رمزية التربيع والدائرة المربعة والمحاولات الهرطقية الرامية إلى تحسين عقيدة التثليث ـ ان يبدو بعيد المنال بعض الشيء وأن اكون مبالغاً في التوكيد على اهميته. لكن محاضرتي كلها، من ناحية،

ليست غير مدخل قصير، وناقص إلى حد مؤسف، إلى الخاتمة والتتويج للحالة النموذجية التي بين ايدينا.

كانت تظهر الدائرة في اول سلسلة احلام المريض. فكانت، مثلاً، تتخذ شكل ثعبان يرسم دائرة حول صاحب الحلم. وكانت تظهر في احلام تالية على شكل ساعة، أو دائرة ذات نقطة مركزية، أو دريئة مستديرة للتمرين على إصابة الهدف، أو ساعة دائمة الحركة، أو طابة، أو كرة، أو طاولة مستديرة، أو حوض، الخ. وكان يظهر المربع، في حوالى نفس الوقت، على شكل بلدة مربعة، أو حديقة ذات بركة في الوسط. وبعد ذلك بقليل، كان يظهر المربع متصلاً بحركة دائرية: اناس يدورون في مربع، حفلة سحرية (تحويل الحيوانات إلى كائنات بشرية) تجري في حجرة مربعة في زواياها الأربع حيّات واناس يدورون في الزوايا الأربع؛ الحالم يسوق سيارة اجرة دائراً حول مربع؛ زنزانة مربعة في سجن؛ مربع فارغ يدور، الخ. وفي احلام اخرى، كانت تتمثل الدائرة بالدوران، مثلاً اربعة اولاد يحملون «حلقة قاتمة» يسيرون في دائرة. وتبدو الدائرة متداخلة مع الرباعي، مثل طاسة فضّية فيها أربع جوزات على الجهات الأصلية الأربع؛ أو طاولة ذات اربعة كراسٍ. وكان يبدو المركز بارزاً بصورة خاصة. كان يرمز اليه ببيضة في وسط حلقة، أو نجم متشكل من عدد من الجنود؛ أو بدوران نجم في دائرة تمثل جهاتها الأصلية الفصول الأربعة؛ أو بالقطب؛ أو بحجر كريم، الخ.

تؤدي جميع هذه الأحلام إلى صورة واحدة جاءت المريض على شكل ارتسام بصري مفاجيء. كان رأى مثل هذه اللمحات أو

الصور البصرية في مناسبات مختلفة. إلا انها، هذه المرة، كانت خبرة عميقة الأثر جداً. كانت، كما يقول هو نفسه، انطباعاً يعبر عن «اسمى حالات الانسجام». في مثل هذه الحالة، ليس يهم ابداً ما يكون عليه انطباعُه«نا»، أو ماذا نفكر «نحن» فيه. انما المهم كيف يشعر المريض حياله. فالخبرة خبرته «هو». واذا كان لهذه الخبرة تأثير تحويلي عميق في حالته، فلا جدوى من المراء بشأنها. ليس لعالم النفس غير ان يأخذ ملاحظة بالواقعة. واذا شعر انه كفء للمهمة فلعلّه يستطيع القيام بمحاولة يفهم من خلالها كيف يمكن ان يكون لمثل هذه الرؤية مثل هذا التأثير في مثل هذا الشخص. لقد كانت نقطة تحول في تطور المريض السيكولوجي. وكانت ما قد ندعوه ـ في اللغة الدينية ـ هداية إلى الله.

وفيما يلي النص الحرفي لهذه الرؤية:

«ثمة دائرتان، احداهما عمودية والثانية افقية، ولهما مركز واحد. هذه هي المزْولة. يحملها الطائر الأسود (يشير المريض هنا إلى رؤية سابقة حمل فيها نسر اسود خاتماً ذهبياً وطار). الدائرة العمودية قرص ازرق بحافة بيضاء، مقسمة إلى ٤ × ٨ = ٣٢ جزءاً. وعقرب الساعة تدور عليها. اما الدائرة الأفقية فمؤلفة من أربعة الوان. اربعة رجال صغار يقفون على الدائرة وهم يحملون النواس والخاتم الذهبي (من الرؤية السابقة) يحيط به.

«للمزولة ثلاثة إيقاعات أو نبضات:

«١ ـ النبض الصغير: تتحرك عقرب القرص العمودي الأزرق بإيقاع واحدٍ من ثلاثين من الثانية (١/٣٢) في كل مرة.

«٢ ـ النبض المتوسط: ويتألف من دورة تامة تدورها العقرب. وفي نفس الوقت تتحرك الدائرة الأفقية بإيقاع واحدٍ من ثلاثين من الثانية.

«٣ ـ النبض الكبير: اثنتان وثلاثون نبضة تساوي دورة واحدة من الخاتم الذهبي»

تجمل هذه الرؤية جميع الإشارات التي وردت في احلام سابقة، وتبدو محاولة لجمع اجزاء الرموز الواردة في تلك الأحلام كلاً متكاملاً يحمل معنى بعينه، يسبغ عليها صفات الدائرة والكرة والمربع والدوران والساعة والنجم والصليب والتربيع والزمن، الخ.

طبعاً، يصعب علينا ان نفهم لماذا يُحدث هذا التكوين المجرد شعوراً بـ «أسمى حالات الانسجام». لكننا لو فكرنا في دائرتي «تيماوس» عند افلاطون، وفي انسجام عالمه الحي الكلّي الاستدارة، لصار بوسعنا ان نجد لنا طريقاً يفضي بنا إلى الفهم. ثم ان اصطلاح المزولة، أو ساعة العالم، ليوحي لنا بمفهوم عتيق عن الانسجام الموسيقي في الدوائر؛ فلعله نوع من النظام الكوسمولوجي. فلو كانت الرؤية رؤية قبة زرقاء ودورانها الصامت، أو رؤية حركة النظام الشمس الثابتة، لفهمنا وقدّرنا فوراً ما في الصورة من انسجام تام، ولاستطعنا الافتراض بأن الرؤية الكونية الأفلاطونية كانت تومض وميضاً ضعيفاً من خلال الحالة العقلية شبه الشعورية. لكنّ شيئاً في الرؤية لا يتفق تماماً مع الكمال والانسجام في الصورة الأفلاطونية. فالدائرتان مختلفتان في طبيعتهما، وحركتهما ليست مختلفة وحسب، وانما لونهما ايضاً. فالدائرة العمودية زرقاء، والأفقية الحاوية على الألوان الأربعة ذهبية.

والزرقاء يمكنها في يسر ان ترمز إلى نصف كرة السماء الزرقاء. بينما قد تمثّل الدائرة الأفقية الأفق وجهاتِه الأصلية الأربع، يشخّصها الرجالُ الصغارُ الأربعة وتميزها الألوانُ الأربعة (في حلم سابق مثّل الجهات الأربع الأولادُ الأربعة والفصولُ الأربعة). تذكرنا الصورة على الفور بالدائرة التي كانت تمثل صورة العالم في القرون الوسطى، أو بالـ «ركس غلوريا» (= المسيح) مع الانجيليين الأربعة، أو بالـ «ميلوثيسيا»، حيث تشكل القبةُ الفلكيةُ الأفقَ. ويبدو ان تمثيل المسيح المظفر مستمد من صور مماثلة لحورس وأبنائه الأربعة؛ كذلك يوجد مشابهات شرقية: المنادل أو الدوائر البوذية، وهي في العادة من منشأ تيبتيّ. والأصل ان تكوّن «بَدْما»، أو، «زهرة لوتس» دائرية تحتوي على بناء قدسي مربع ذي أربعة مداخل، تدل على الجهات الأصلية الأربع وعلى الفصول الأربعة. ويحتوي المركز على «بوذا»، أو في الأغلب على رمز اقتران «شيفا» بـ «شاكتي»، أو على رمز الصاعقة الذي يعادله. فهي ادوات تستخدم في طقس التأمل والتفكر الذي يرمي إلى تحويل نهائي لواعية «اليوغي» إلى كلّية الوعي الإلهي.

مهما كانت هذه المشابهات صارخة، إلا انها غير كافية؛ لأنها جميعها تشدد على اهمية المركز تشديداً يبدو معها وكأنها وضعت لكي تعبر عن اهمية الشكل الموجود في المركز. غير ان المركز فارغ، في الحالة التي نحن بصددها؛ نقطة رياضية ليس إلاّ. اما الموازيات المذكورة فتصف الألوهة الخالقة للعالم أو المهيمنة عليه، أو الإنسان في اعتماده على المجموعات الفلكية. بينما الرمز عند مريضنا ساعة

تدل على الزمن. لكن الشبه الوحيد الذي استطيع ان افكر فيه هو دائرة الأبراج HOROSCOPE .فلهذه الدائرة ايضاً اربع جهات أصلية ومركز فارغ. زد على ذلك ان بينهما توافقاً غريباً آخر: في الاحلام السابقة، غالباً ما يذكر الدوران وعادةً ما يقال انه ينطلق باتجاه اليسار. ولدائرة الابراج اثنا عشر بيتاً تتحرك ايضاً باتجاه اليسار؛ اي بعكس دَوَران الساعة.

لكن دائرة الأبراج دائرة واحدة فقط وليس فيها نظامان مختلفان اختلافاً بَيّناً؛ وهي لذلك شبه غير كاف، وإن كانت تلقي شيئاً من الضوء على الجانب الزمني من الرمز الذي يشتمل عليه الحلم. ولولا كنز الرمزية الذي يحتويه مستودع العصر الوسيط، لكنا صرفنا النظر عن محاولتنا في البحث عن موازيات سيكولوجية. وبسائق المصادفة تعرفت على مؤلف غير معروف كثيراً عاش في القرن الرابع عشر هو «غيوم ديغُل فيل»، كان رئيساً لدير في «تشاليس»، وكان شاعراً نورمندياً كتب ثلاث «حجات» بين اعوام ١٣٣٠ و١٣٥٥، سميت «حجة الحياة الإنسانية والنفس ويسوع المسيح». في آخر «نشيد حجة النفس» نجد رؤيا الفردوس:

يتكون الفردوس من تسع وأربعين كرة دوّارة تسمى «قروناً»، من حيث هي نماذج اصلية أو نماذج بدئيّة للقرون الأرضية. لكن، كما بيّن الملاك الذي يتولّى ارشاد «غيوم»، ان العبارة الكنسية INSAEC-ULA SAECULORUM تعني الأبدية دون الزمن العادي. يحيط بجميع الكرات سماء ذهبية. ولما حدّق «غيوم» في السماء الذهبية ما لبث حتى أبصر دائرة صغيرة، لا يزيد قطرها على ثلاث اقدام، ولونها

الياقوت الأزرق. يقول «غيوم» عن هذه الدائرة: «طلعت من نقطة من السماء الذهبية وعادت اليها من الطرف الآخر وأتمّت دورة كاملة». كان من الواضح ان الدائرة الزرقاء تفتل كالقرص فوق دائرة اكبر تقسم كرة السماء الذهبية.

لدينا هنا إذن نظامان مختلفان، اولهما ذهبي والثاني ازرق، وأحدهما يخترق الآخر. ما هي الدائرة الزرقاء؟ يعود الملاك فيشرح لـ «غيوم» قائلاً:

هذه الدائرة التي تشاهدها هي الروزنامة،
التي عندما تدور دورة كاملة،
تبيّن للقديسين الأيام
التي يجب ان يعيّدوا فيها.
كلّ يدوّر الدائرة دورة واحدة،
وكل نجم فيها يمثل يوماً،
وكل شمس فترة
ايام ثلاثين أو قبة الفلك.

الدائرة الزرقاء هي الروزنامة الكنسية. وبذلك يكون لدينا هنا مواز آخر ـ هو عنصر الزمن. ونحن نذكر ان الزمن، في رؤية صاحبنا، يتميز أو يقاس بثلاث نبضات. وقد رأينا ان روزنامة «غيوم» يبلغ محيطها ثلاث اقدام. زد على ذلك ان «غيوم» بينما كان يحدّق في الدائرة الزرقاء تظهر له فجأة ثلاثة ارواح ملتفّة بالأرجوان، فيبيّن له الملاك ان هذه هي لحظة القديسين الثلاثة، ثم يمضي في حديثه عن قبة الفلك كلها. وعندما يأتي إلى ذكر السمك يذكر عيد الصيادين

الاثني عشر، وهو العيد الذي يسبق عيد الثالوث الأقدس. فيتوقف «غيوم» ويقول للملاك انه لم يفهم رمز الثالوث تماماً، ويطلب منه ان يتفضل بحل هذا اللغز. على ذلك يجيب الملاك: «ويوجد ثلاثة الوان رئيسية: الأخضر والأحمر والذهبي». وبوسع المرء ان يراها مجتمعةً في ذيل الطاووس. ثم يضيف: «الملك القدير الذي جمع الألوان الثلاثة، الا يستطيع ايضاً ان يجعل من جوهر واحد ثلاثة؟». ثم يقول ان اللون الذهبي يرجع إلى الآب، والأحمر إلى الابن، والأخضر إلى الروح القدس. ثم يحذر الشاعرَ ان يسأل اسئلة أخرى، ثم يتوارى الملاك.

لقد تعثر العجوز المسكين، «غيوم»، عند نفس المشكلة: يوجد ثلاثة، فأين الرابع؟ لقد كان متلهفاً لأن يسمع شيئاً عن الثالوث الذي، كما يقول، لم يكن يفهمه تماماً. وكان يساوره ظن بأن الملاك كان في عجلة من أمره ويريد ان ينصرف عنه قبل ان يسأله «غيوم» اسئلة محرجة أخرى.

ما احسب «غيوم» الا أنّه كان غائباً عن الشعور عندما ذهب إلى السماء، وإلا لكان استخلص نتائج معينة مما رأى. لكنه ماذا رأى فعلاً؟ اولاً، رأى الكرات أو «القرون» يسكنها من وصلوا إلى السعادة الأبدية. ثم رأى السماء الذهبية، وكان هناك «ملك السماء»، جالساً فوق عرش ذهبي، وإلى جانبه «ملكة السماء»، جالسة فوق عرش من الكرستال الأسمر. يشير هذا التفصيل الأخير إلى ان «ماريا» صُعِد بها إلى السماء بالجسد، بما هي الفاني الوحيد الذي يُسمح له ان يتحد بجسده قبل قيامة الأموات. في مثل هذه الصور يكون الملك عادةً هو

المسيح المظفر في اقترانه بالكنيسة، وهي عروسه. لكن الشيء البالغ الأهمية هو ان الملك، من حيث هو المسيح، هو الثالوث في نفس الوقت، وان العدد «اربعة» هو الملكة. والأزرق هو لون رداء «مريم» السماوي، بما هي «الأرض» تغطيها خيمة السماء الزرقاء. لكن لماذا لا يُؤتى على ذكر «ام الله»؟ بحسب الدغماطيقا، مريم مباركة ليس غير، وهي ليست سماوية. زد على ذلك انها تمثل الأرض، التي هي ايضاً الجسد وظلمته. وهذا هو السبب الذي جعل منها، وهي الممتلئة رحمةً، شفيعةً لجميع الخطاة.

من هذه النبذة التي اقتبسناها من علم النفس الوسيط نكتسب شيئاً من بصيرة تعيننا على النفاذ إلى ما في مندلة مريضنا من مميزات. فهي توحّد الأربعة حتى لتعمل جميعها معاً في انسجام وائتلاف. لقد نشأ مريضنا نشأة كاثوليكية، وبذلك واجه ـ عن قلة دراية ـ نفس المشكلة التي سببت غير قليل من القلق لـ «غيوم» العجوز. لقد كانت مشكلة كبيرة في العصور الوسطى؛ وأعني بها مشكلة الثالوث واستبعاده للعنصر المؤنث، أو الاعتراف المقيد جداً به؛ وهو العنصر الذي يتمثل في الأرض والجسد اللذين كانا حتى ذلك الحين في شكل رحم مريم المقامَ المقدس للألوهة، والحلقة التي لا غنى عنها في سلسلة عمل الفداء الإلهي. لقد كانت رؤية مريضنا جواباً رمزياً عن مشكلة القرون. ولعل هذا هو السبب العميق وراء إعطاء المزولة انطباعاً بـ «أسمى حالات الانسجام». وكانت اول نفاذ إلى حل ممكن للصراع المدمر بين المادة والروح، بين شهوات الجسد ومحبة الله. فرؤية المندلة، التي تلتقي فيها جميع المتضادات، تتغلب على

المساومة البائسة وغير المجدية التي جاءت في «حلم الكنيسة». ولو كان لنا ان نستشهد هنا بالفكرة الفيثاغورية القديمة القائلة بأن الروح مربّعة، لكانت المندلة تعبيراً عن الألوهة من خلال الإيقاع المثلث، وعن الروح من خلال الرابوع الثابت؛ أي الدائرة المقسمة إلى اربعة ألوان. وبذلك ينطوي معناها الأعمق على اتحاد الروح بالله.

بمقدار ما كانت المزولة تمثل الدوائر المربعة والحركة الدائمة، وهما اهتمامان شغلا عقل إنسان العصر الوسيط، فإن هذين الاهتمامين يجدان تعبيرهما المكافىء في المندلة. فالخاتم الذهبي ومحتوياته يمثل الرابوع في شكل «الكابير» الأربعة، والألوان الأربعة، اما الدائرة الزرقاء فتمثل الثالوث وحركة الزمان، بحسب «غيوم». وفي حالة مريضنا، يتصف عقرب الدائرة الزرقاء بحركة أسرع، وتتحرك الدائرة الذهبية بطيئة. وبينما تبدو الدائرة الزرقاء غير متناسبة قليلاً في سماء «غيوم» الذهبية، تنضم الدوائر بعضها إلى بعض في انسجام في حالة مريضنا، ويصبح الثالوث عنده هو الحياة، «نبض» النظام كله، في ثلاثة إيقاعات، مؤسسة على العدد ٣٢، وهو من أضعاف الأربعة وبذلك يتداخل الرابوع والدائرة من جهة مع الإيقاع الثلاثي ومن جهة ثانية بعضها في بعض حتى لينطوي كل منها على الآخر. في رواية «غيوم»، الثالوث واضح. بينما يختلف الرابوع في ثنائية ملك السماء وملكة السماء. ثم ان اللون الأزرق لا ينضم إلى الملكة، بل إلى الروزنامة التي تمثل الزمان، وتتصف بصفات الثالوث. وهذه تبدو مسألة تداخل شبيهة بحالة مريضنا.

ان تداخل الصفات والمحتويات فيما بينها لَمِمّا تتميز به الرموز.

نجد هذا، ايضاً، في التثليث المسيحي، حيث الآب متضمّن في الابن، والابن في الآب، والروح القدس متضمّن في الآب والابن أو متداخل في كليهما. التدرج من الآب إلى الابن يمثل عنصر الزمان، بينما عنصر المكان تشخّصه «ام الله». (كانت صفة «الأم» تُعزى في الأصل إلى الروح القدس وكان هذا يسميه بعض المسيحيين الأوائل «سوفيا سابيانسيا» SOPHIA SAPIENTIA). هذه الصفة المؤنثة ابتُ ان تُقتلع من جذورها تماماً، اذ لم تزل تدخل في رمزية الروح القدس، على الأقل (كولومبا سبيرتوس سَنْكْتي). لكن الرابوع غائب غياباً كلّياً عن الدغماطيقا رغم انه ظهر مبكراً في الرمزية الكنسية. انما اشير هنا إلى الصليب ذي الشُعب الأربع المتساوية التي تحتويها الدائرة، وإلى المسيح المظفر مع الإنجيليين الأربعة، وإلى «التترامورفوس»، الخ. وفي الرمزية الكنسية اللاحقة، تبدو الوردة السرّية ROSA MYSTICA وإناء العبادة VAS DEVOTIONIS والنبعة المختومة FONS SIGNATUS والحديقة المسيَّجة HORTUS CONCLUSUS صفاتٍ لأم الله MATER DEI ، والأرض المستروحة SPIRITUALIZED.

ان منـدلتنـا تمثيل مجرد، يكاد ان يكون رياضياً، لبعض من المشكلات الرئيسية التي كانت محل بحث كثير في الفلسفة المسيحية الوسيطة. وقد ذهب التجريد بعيداً حتى اننا لولا ان نستعين برؤية «غيوم» لكُنّا غفلنا عن جذورها التاريخية المتشعبة. والمريض لا يملك معرفة حقيقية بمثل هذه المواد التاريخية تزيد على ما يعرفه كل شخص تلقّى شيئاً من المعلومات الدينية في صباه الباكر. وهو نفسه لم ير علاقة بين المزولة والرمزية الدينية من أي نوع. ولعل المرء يستطيع ان يدرك هذا

من فوره، مادامت الرؤية لا تتضمن شيئاً يذكره بالدين من الوهلة الأولى. ومع ذلك جاءت الرؤية بعد وقت قريب من حلم «بيت التجمع الذاتي». كذلك كان ذلك الحلم جواباً على مشكلة الثلاثة والأربعة التي كانت تمثلت في حلم سابق ايضاً. لقد كان الموضوع ثمة فراغاً مستطيلاً، تقوم على أضلاعه الأربع اربعة اقداح مُلئت ماء ملوّناً، احدها اصفر، والأخر احمر، والثالث اخضر، والرابع لالون له. واضح ان الأزرق غير موجود، ومع ذلك كان متصلاً بالألوان الثلاثة الأخرى في رؤية سابقة، حيث ظهر دبّ في عمق كهف، له اربع اعين ينبعث منها ضوء احمر وأصفر وأخضر وأزرق. لكن ـ واعجباه! ـ يغيب اللون الأزرق في الحلم الذي يليه. وفي نفس الوقت يصبح المربع العادي مستطيلاً لم يظهر قط من قبل. وكان سبب هذا الاضطراب الظاهر مقاومة للعنصر المؤنث المتمثل بالأنيمة. في حلم «بيت التجمع الذاتي» يؤكد الصوت هذه الحقيقة بقوله: «ان ماتفعله خطر عليك. ليس الدين ضريبة تدفعها للتخلص من صورة المرأة. فهذه الصورة لا غنى لك عنها». ان «صورة المرأة» هذه لهي بالضبط ما نسميه بـ «الأنيمة» ANIMA.

من الطبيعي ان يقاوم الرجل «أنيمته»، لأنها تمثل، كما قلت آنفاً، خافيته ومعها جميع الميول والمحتويات التي يستبعدها من حياته الواعية. وإنما يستبعدها لعدد من الأسباب حقيقية وظاهرية. والأصل ان هذه الميول التي تمثل قدْراً من العناصر المنافية للجماعة الموجودة في بنية الرجل النفسية ـ وهو ما أسميه بـ «المجرم الإحصائي» STATISTICAL CRIMINAL في كل شخص ـ هي ميول مكبوحة

SUPPRESSED ، أي اننا نتخلص منها واعين وعامدين . لكن الميول المكبوتة REPRESSED تختلف عن المكبوحة من حيث إنها مشكوك فيها ليس غير؛ فهي ليست منافية للمجتمع منافاة قطعية، بل حريّ بها ان تكـون غير موافقـة للعـرف وتسبب نوعـاً من الإحراج من الناحية الاجتماعية، والسبب الذي يحملنا على كبتها هو محل شك ايضاً. فبعض الناس يكبت عن جبن محض، وبعضهم يكبت مراعاة لأخلاق تعـارف عليها الناس، وآخرون يكبتون بوازع من الاحترام. والكبت نوع من تصريف الأشياء عنا في قليل من الوعي وقليل من التصميم؛ وهو أشبه شيء برمي قرص حلوى لأنه ساخن، أو سبّ العنب لأننا لا نطوله، أو اشاحة الوجه إلى الطريق الآخر لكيلا نطلع على شهواتنا. لقد بيّن فرويد ان الكبت احدى الأليات الرئيسية في خلق العصاب. اما الكبح فيبلغ مبلغ الاختبار الاخلاقي، على حين ان الكبت أقرب إلى «الجنوح» غير الأخلاقي تخلصاً من قرارات غير مقبولة. وقد يورث الكبح قلقاً ونزاعاً ومعاناة، لكنه لا يورث ابداً عصاباً من الأنواع غير العادية. العصاب بدل من معاناة مشروعة.

اذا استبعـدنا «المجرم الإحصائي»، يبقى امامنا مجال واسع للصفات الدنيا والميول البدائية التي ترجع إلى بنية الإنسان النفسية الذي هو اقل مثاليةً، وأكثر بدائيةً، مما نريد له ان يكون. ان لدينا افكاراً معينة عن الكيفية التي يجب ان يحيا بها كائن متمدن أو مثقف أو اخـلاقي، ونسعى جاهـدين احياناً لكي نكـون في مستوى هذه التطلعات الطموحة. لكن الطبيعة لم تمنح نفس البركات لكل واحد من ابنائها، فجاء بعضهم اكثر، والآخرون اقل، موهبة. ولذلك نجد

انـاسـاً بوسعهم ان يعيشوا عيشاً مناسباً ومحترماً، أي بدون ان تظهر عيوبهم على الناس. فهم اما يرتكبون اخطاء صغيرة، ان هم اخطؤوا اصلاً، واما ان تُغيّب اخطاؤهم حتى عن داعيتهم. ونحن أُمْيَلُ إلى الرفق بالخطاة الذين لا يشعرون بأخطائهم. ورغم ان القانون يعاقب على قلة الوعي احياناً، إلا ان ممارسة الاعتراف في الكنيسة مَعْنِيّة فقط بالأفعال التي تقرنها انت نفسك بشعور بالإثم. لكن الطبيعة لا تغفر ابداً للخطاة الذين يرتكبون أخطاءهم عن غير وعي منهم، بل تعاقبهم بقسوة كما لو أنهم ارتكبوا اخطاءهم عن وعي. ولذلك لا نجد من ينمّي قابلية غريبـة للغضب الشديد ونوبات جهنمية من الهياج كما ينمّيها الأشخـاص الـرفيعو الأخلاق، غير العارفين بجانبهم الآخر، بحيث تجعل منهم أناساً لا يُطاقون بين ذويهم. قد تكون القداسة شيئاً بعيد المنال، اما ان تعيش مع قديس فربما اورثك عقدة نقص أو سبب لك انفجـاراً همجياً من منـافـاة الأخلاق إن كنت اقل موهبةً من الناحية الأخلاقية، ويبدو ان الأخلاق موهبة كالذكاء، لا تستطيع ان تضخّها إلا في شبكتها، وإلا أفسدتها.

لسوء الحظ، ان الإنسان، بما هو كلّ، لاشك اقل صلاحاً مما يتصور نفسه او مما يريد ان يكون. كل منا يحمل ظلاً؛ وكلما كان تجسيده في حياتنا الواعية اقل، كان أشد سواداً وأشد كثافة. لو كان الإنسان مدركاً لعيبه، لكانت لديه دائماً فرصة لتنقية نفسه منه. هذا إلى ان هذا العيب كثيراً ما يكـون على احتكاك باهتمامات اخرى، الأمر الذي يتيح له دائماً ان يخضع للتعديلات. بينما لو كَبَتَ عيبه وعَزَلَه عن الواعية، لم يصحح ابداً؛ فضلاً عن انه يظل عرضة للانفجار

في لحظة غفلة. وفي جميع الأحوال، يشكل عقبة خفية تفسد علينا اكثر مساعينا قصداً.

اننا نحمل ماضينا معنا حتى اننا لنتفوّق على البدائي والمعتوه في شهواتنا وانفعالاتنا، وليس يسعنا ان نتخلص من هذا العبء إلا ببذل جهد كبير. فإذا وصل بنا الأمر إلى العصاب، كان علينا ان نتعامل مع ظلّ كثيف جداً. واذا قدّر لهذه الحالة شفاء، فإن من الضروري ان نجد طريقة تستطيع فيها شخصية الإنسان ان تعيش مع الظل جنباً إلى جنب.

ان هذه لمشكلة بالغة الخطورة لمن كانوا واقعين في مثل هذه الأزمة، أو لمن كان عليهم ان يعينوا على العيش غيرهم من الناس. ان مجرد كبح الظل لا يفيد علاجاً إلا بمقدار ما يفيد قطع الرقبة علاجاً لوجع الرأس. كذلك ليس من المفيد ان نحطم اخلاقيات إنسان، لأننا عندئذٍ نقضي على خير ما فيه، وعندئذٍ يصبح حتى الظل لغواً فارغاً. وتعتبر المواءمة بين هذه الأضداد من المشاكل الكبرى التي اقلقت بعض العقول في العصور القديمة. وقد وصل إلى علمنا ان شخصية خرافية، عرفت في القرن الثاني باسم «كاربو كراتيس»، وكان من الغنوصيين، قد فسّر الفقرة الخامسة والعشرين من الفصل الخامس من انجيل متى، التي نقرؤها كما يلي: «بادر إلى موافقة خصمك مادمت معه في الطريق»، فسّرها بالقول: الخصم هو الإنسان الجسماني. وبما ان الجسد الحي جزء لا غنى عنه للشخصية، لذلك يجب قراءة النص كما يلي: «بادر إلى موافقة نفسك مادمت مع نفسك في

الـطريق». ولقـد كان من الـطبيعي الا تستطيع عقلية الآباء (= آباء الكنيسة) الصلبة ان تتذوق ما في هذه الحجة الخفيّة من لطافة ودقة، بل وحـداثـة، بما هي واسعة التطبيق عملياً. لقد كانت فكرة خطرة ايضاً؛ ومازالت اكثر المشاكل حيوية وحساسية، مما نسيته الحضارة، مشكلة البحث عن مسـوّغ لوجـوب إقـامـة حياة الإنسـان على مبدأ التضحية؛ أي تقديم نفسه قرباناً في سبيل فكرة اعظم من الإنسان. والإنسان بمقدوره ان يعيش اشياء عجيبة لو كان لهذه الأشياء معنى عنده. لكن الصعوبة هي في خلق هذا المعنى. طبعاً يجب ان يكون ذلك اقتناعاً؛ ولكنك تجد اكثر الأشياء اقناعاً، مما يستطيع ان يخترعه الإنسـان، هي الأشياء الرخيصة والجاهزة؛ وليس بمقدورك ابداً ان تقنعه بأن يقف في وجه شهواته ومخاوفه الشخصية.

لو كانت الميول المكبوتة ـ وقد أسميتها الظلّ ـ شريرة قطعاً، لما كان ثمة مشكلة من أي نوع. لكن الظل مجرد كينونة متدنّية بدائية غير متكيفة، خرقاء؛ ليست شراً كلها؛ بل تنطوي على صفات ناقصة أو صبيانية أو بدائية من شأنها ان تنشّط ـ بطريقة ما ـ الوجود الإنساني وتحسّنه. لكن هذا لم يحدث. فالجمهور المثقف عندنا، وهو زهرة حضارتنا الحديثة، اقتلع نفسه من جذوره، وهو الآن يوشك ان يفقد كل صلة له بالأرض. ما من بلد متمدن في هذه الأيام إلا والطبقات الدنيا فيه في حالة قلق وشقاق. وقد استولت هذه الحالة على الطبقات العليا في عدد من امم اوروبا. وهي برهان على مشكلتنا السيكولوجية على نطاق واسـع. بمقـدار ما تكـون الجماعات مجرد ركامات من افراد، تكون مشاكلها هي ايضاً ركامات مشاكل فردية. ففريق يواحد

نفسه بالإنسان الأعلى ولا يستطيع النزول، وآخرون يواحذون انفسهم بالإنسان الأدنى ويسعون إلى بلوغ السطح.

مثل هذه المشاكل لا يحلها تشريع ولا حيل؛ لا تُحل إلا بتغيير عام في الموقف. ولا يبدأ التغيير بالدعاية أو الاجتماعات العامة أو العنف؛ انما يبدأ بتغيير الأفراد. ثم يمضي تغييراً فيما يحبون وما لا يحبـون، وفي نظرتهم إلى الحياة، وفي قيمهم؛ ولن يُنتج الحلُّ الجماعي شيءٌ كما ينتجه تراكمُ مثل هؤلاء الأفراد المتغيرين.

ان الإنسان المثقف يعمل على كبت الإنسان الوضيع في داخله، غيرَ مدركٍ انه بهذا الكبت انما يحمل هذا الأخير على الثورة. مما يتميز به مريضنا انه حَلُم مرةً بفصيل من الجنود يعتزم «شنق الجناح اليساري بكامله». فأفاده احدهم بأن الجناح اليساري ضعيف، لكن فصيل الجنود يجيب ان هذا هو السبب الذي يستوجب شنق الجناح اليساري بكامله. يبيّن هذا الحلم كيف يتعامل مريضنا مع الإنسان الوضيع في داخله. واضح ان هذا ليس بالاسلوب الصحيح. ان حلم «بيت التجمع الذاتي»، على العكس، يكشف عن موقف ديني هو الجواب الصحيح على سؤاله. وتبدو المندلة توضيحاً لهذه النقطة بالذات. كما رأينا، كانت المندلة تاريخياً رمزاً لتوضيح طبيعة الألوهة من الناحية الفلسفية، أو للبرهنة على نفس الشيء في شكل مَرْئيّ بقصد العبادة، أو كما هو الحال في الشرق، وسيلة لرياضة اليوغا. فكلّية الدائرة السماوية ومُربَّعيّة الأرض الجامعة للمبادىء أو العناصر الأربعة أو الصفات النفسية الأربع ـ كل هذا يعبر عن التكامل والوحدة. وبذلك يكون للمندلة مكانة «الرمز المُوائِم». وكما ان رمز

المسيح، أو الصليب، يعبر عن المُواءمة بين الله والإنسان، كذلك يحق لنا ان نتوقع ان تكون «مِزْولة» المريض نوعاً من المعنى المُوائم. وبما اننا متأثرون بالمقارنات التاريخية، كان علينا ان نتوقع للألوهة ان تحتل مركز المندلة. غير ان المركز فارغ. فمكان الألوهة لا يشغله شيء، بالرغم من اننا لو حلّلنا المندلة وفقاً لنماذج تاريخية، لوصلنا إلى «الإله» مرموزاً اليه بالدائرة، وإلى «الإلهة» مرموزاً اليها بالمربع. ويمكننا ان نقول «الأرض» أو «الروح» بدلاً من «الإلهة». في مقابل تأثرنا بالتاريخ، يجب الإلحاح على اننا (كما في «بيت التجمع الذاتي»، حيث يحتل الرابوع مكان الصورة الإلهية)، لا نجد أثراً للألوهة في المندلة. وإنما هي آلية ليس غير. انا لا اؤمن بأن من حقنا ان نصرف النظر عن مثل هذه الحقيقة الهامة في سبيل فكرة سبق لنا وأن فهمناها من قبل. فالحلم أو الرؤية هو ما ينبغي ان يكون. ليس قناعاً يخفي شيئاً آخر، بل ناتج طبيعي، وشيء بدون دافع تحديداً. لقد رأيت مئات المنادل لمرضى لم يكونوا يعلمون عنها شيئاً، فوجدت نفس الحقيقة في الغالبية العظمى من الحالات: لم يكن فيها ألوهة تحتل المركز.

عندما نجد المسيح في النافذة الوردية من كنيسة من العصر الوسيط، نفترض بحق ان هذا يجب ان يكون الرمز المركزي للديانة المسيحية. ثم اننا نفترض ان كل ديانة ضاربة الجذور في التاريخ يدين بها شعب هي تعبير عن سيكولوجية هذا الشعب بمقدار ما يعبر عنها، مثلاً، شكل الحكم السياسي الذي طوره هذا الشعب. ولو طبقنا نفس المنهج على المندلة الحديثة التي يراها الناس في

احلامهم أو رؤاهم ، أو طوّروها من خلال «مخيلة فاعلة» ، لوصلنا إلى نفس النتيجة ـ وهي ان المنادل تعبيرات عن موقف معين لا يَسَعُنا إلا ان نسميه «موقفاً دينيّاً» . والدين علاقة بأعلى القيم أو بأقواها ، لا فرق ان تكون هذه القيمة سلبية أو إيجابية . وهذه العلاقة إرادية مثلما هي غير إرادية ـ اي انك تستطيع ان تقبل واعياً بهذه القيمة التي تستحوذ عليك في خافيتك . تلك الحقيقة السيكولوجية التي هي اعظم قوة في نظامك انما هي الله ، مادام العامل النفسي القاهر نسميه إلهاً . وعندما لا يكون عاملاً نفسياً قاهراً ، يصبح اسماً ليس إلا : جوهرُهُ قدمات وقدرتهُ قد تلاشت . لماذا فقدت آلهة الأزمنة القديم هيبتها وتأثيرها على النفوس البشرية؟ لقد كان ذلك لأن آلهة الأولمب قد فرغت من زمانها ، وابتدأ سرّ جديد : الله يصير إنساناً .

لو نبيح لأنفسنا ان نستخلص نتائج من المندلة الحديثة لسألنا الناس اولاً ان كانوا يعبدون النجوم أو الشموس أو الأزهار أو الأفاعي . لسوف ينكرون ذلك ، لكنهم سوف يؤكدون في نفس الوقت ان الكرات والنجوم والصلبان وما أشبه ذلك هي رموز على المركز في ذاتها . ولو سألناهم ماذا يقصدون بالمركز ، لسوف يبدؤون بالتلعثم والإشارة إلى هذه الخبرة أو تلك التي ربما تكون شبيهةً جداً بما اعترف به مريضنا الذي غمره شعور عجيب من تمام الانسجام لدى رؤيته للمزْولة . ولسوف يعترف آخرون بأن رؤية مماثلة قد حدثت لهم في لحظة الم أو كرب عظيم . ولسوف يقول آخرون انها تذكّرهم بحلم رفيع أو لحظة انتهت فيها اضطرابات دامت طويلاً ولم تثمر عن شيء وبدأ فيها عهد من السلام . وأنت لو أجْملت ما يقوله الناس عن خبرتهم لكنت تصوغه

بهذه الطريقة: لقد صحوا على أنفسهم، واستطاعوا ان يقبلوا نفوسهم، واصبحوا قادرين على التصالح مع انفسهم وبذلك تصالحوا مع الظروف أو الحوادث المعاكسة. وهذا يشبه كثيراً ما كان يُعبَّر عنه في السابق: لقد تصالح مع الله، لقد ضحّى بإرادة نفسه، لقد اسلم نفسه إلى إرادة الله.

المندلة الحديثة اعتراف غير إرادي بحالة عقلية غريبة. ليس في المندلة الحديثة ألوهة، ولا إسلام لها أو مصالحة معها. ويبدو ان مكان هذه الألوهة قد أخذته «كلّية الإنسان» THE WHOLENESS OF MAN.

عندما نتكلم عن الإنسان، كل شخص يعني بذلك شخصيته الأنيّة ـ اي شخصيته بمقدار ما هو عارف بها. وعندما يتكلم المرء عن غيره يحسب ان لديه شخصية مماثلة جداً. لكن، بما ا ن الأبحاث الحديثة علمتنا ان الواعية الفردية تنهض على نفس خافية تحيط بها وتمتد بلا حدود، تعيّن علينا أن نصحح اعتقادنا البالي بأن الإنسان ما هو إلا واعيته. هذا الاعتقاد القريب من السذاجة يجب ان نقابله فوراً بالسؤال الدقيق: واعية مَن؟ هل هي واعية نفسه ام وعي غيره من الناس له؟ والحق انه لمن الصعب ان نوفق بين الصورة التي ارسمها لنفسي والصورة التي يرسمها الناس عني. من هو المصيب؟ ومن هو الانسان الحقيقي؟ وعندما نأخذ في الحسبان ان الإنسان ايضاً هو ما لا يكون هو نفسه ولا ما يعرفه سائر الناس عنه ـ شيء مجهول لم يزل علينا ا ن نبرهن على وجوده ـ عندئذٍ تصبح مشكلة الهوية، مثلما كانت من قبل، امراً في غاية الصعوبة.

والحق أنه يستحيل علينا ان نحدّ مدى الوجود النفسي وطبيعته النهائية. إننا عندما نتكلم عن الإنسان فإنما نعني وجوده وهو لا يُحدّ، وكلّيته وهي لا توصف، ولا تصاغ الا رمزاً. لقد تخيّرت اصطلاح «النفس او الذات» THE SELF ، للدلالة على كلّية الانسان، وهي جماع وجوده الذي يشتمل على الواعية والخافية كليهما. وانما تخيّرت هذا الاصطلاح لكي اتفق مع الفلسفة الشرقية التي انكبّت قروناً على المشاكل التي تنشأ حتى عندما لا تعود الآلهة تصير كائنات بشرية. تتفق فلسفة الأوبانيشاد مع سيكولوجية اعترفت منذ زمن بعيد بنسبية الآلهة. ان هذا يجب الا يلتبس بخطأ غبي كالإلحاد. العالم هو هو لم يتغير، وإنما واعيتنا هي التي تعرضت لتغيرات غريبة. أولاً، في الأزمنة البعيدة (التي ما زلنا نستطيع ان نراها لدى البدائيين الأحياء)، كانت جملة الحياة النفسية الرئيسية قائمة في الأشياء البشرية وغير البشرية: لقد كانت مُضْفاةً او مُسْقَطَةً PROJECTED ، كما ينبغي لنا ان نقول اليوم. والواعية تكاد ان توجد في حالة إسقاط كامل. وما كانت في احسن احوالها غير كومة من الانفعالات. وكان نمو المعرفة الواعية يجري بطيئاً من خلال انسحاب الإسقاطات وانكفائها. وبدأ العلم عملياً ـ وا عجباه! ـ بالكشف عن القوانين الفلكية، التي كانت أولى مراحل تجريد العالم من الروح DESPIRITUALIZATION . ثم اعقب الخطوة خطوةً أخرى. وقد ازال الإنسان، منذ القديم، الآلهة من الجبال والأنهار، ومن الأشجار والحيوانات. وقد لطّف العلم من إسقاطاته الى درجة لا نكاد نتعرف عليها. لكن حياتنا السيكولوجية العادية ما زالت تحفل بالإسقاطات، ونستطيع ان نجدها منتشرة في

الصحف والكتب والإشاعات والكلام الفارغ في المجتمعات. وما زالت جميع الثغرات في معرفتنا الراهنة ممتلئة بالإسقاطات. ونحن ما زلنا على شبه اليقين بأننا نعرف ما يفكر فيه غيرنا من الناس او ما هي شخصياتهم الحقيقية، ونحن مقتنعون بأن اناساً معينين لهم من الصفات الرديئة مما لا نعرفه في انفسنا، او انهم يعيشون في جميع هذه العيوب التي ليست عيوبنا ابداً، بطبيعة الحال. وما زال علينا ان نحرص اشد الحرص لكيلا نُسقط ظلالَنا بدون ان نفرط في قلة الحياء، وما زلنا غارقين في مستنقع الأوهام المُسْقطة. وأنت لو تخيلت امرءاً بلغ من الشجاعة مبلغاً يستطيع معه ان يسحب هذه الإسقاطات، جملةً وتفصيلاً، لأصبح هذا الإنسان عارفاً بأن لديه ظلاً كثيفاً جداً، ولأرهق نفسه بمشاكل ومنازعات جديدة، ولغدا مشكلة خطرة لنفسه بعد ان لم يعد قادراً على القول بأن «هم» فعلوا هذا او ذاك، او ان «هم» مخطئون، و«هم» الذين يجب قتالهم. انه إنسان يعيش في «بيت التجمع الذاتي». مثل هذا الإنسان يعلم ان كل غلط في العالم انما هو في نفسه؛ وهو لو يتعلم كيف يتعامل مع ظله، اذن لفعل شيئاً حقيقياً من اجل العالم؛ بعد إذ حالفه التوفيق في ان يزيل على الأقل ولو جزءاً صغيراً جداً من المشاكل الاجتماعية الكبيرة التي لا تجد لها حلاً في هذا الايام. وهي مشاكل مستعصية ولا تزيدها الاسقاطات الا تعقيداً. كيف يستقيم لامرىء رؤية صحيحة وهو لا يستطيع ان يرى حتى نفسه ولا تلك الظلمة التي يقوم هو نفسه بنقلها، وهو غير عالم بها، الى جميع علاقاته؟

لقد ادّى التطور السيكولوجي الحديث الى فهم افضل بكثير

لطبيعة الإنسان وعناصر تكوينه. كانت الآلهة في البدء تتمتع بقوة وجمال لا يتمتع بهما البشر. وكانت تسكن فوق قمم الجبال المكللة بالثلوج او في ظلمات الكهوف والغابات والبحار. ثم تجمعت كلها في إله واحد، ثم اصبح هذا الإله انساناً. لكن الآلهة، في زماننا، تجمعت في حِجْر الإنسان العادي وأصبحت قوة مخيفة مثلما كانت من قبل، بالرغم من قناعها الجديد ـ الوظائف النفسية المزعومة. يظن الإنسان انه يمسك بالنفس في راحة يده، بل انه يحلم بأن يجعل منها علْماً. لكن النفس، في الواقع، هي الأم والصانع، وهي الموضوع النفسي، بل هي إمكانية الوعي نفسه.. لقد قطعت النفس اشواطاً بعيدة تعدت حدود الواعية حتى ليمكننا ان نشبه هذه الأخيرة بجزيرة في عباب بحر محيط. الجزيرة صغيرة وضيقة، والبحر واسع وعميق جداً، بحيث لو كانت المسألة مسألة مكان، لم يكن ثمة فرق بين ان تكون الآلهة في الداخل او في الخارج. لكن، لو يمضي السياق التاريخي في تجريد العالم من الروح ـ اعني انكفاء الإسقاطات ـ مثلما هو ماض الى الآن، اذن لعاد كل ما له صفة إلهية او شيطانية الى النفس، ع لى داخل الانسان المجهول. هنا يبدو الخطأ المادي، بادىء الرأي، أمراً لا مناص منه: بما ا ن عرش الله لم يمكن اكتشافه في انظمة المجرات، كان معنى ذلك ان الله لم يكن موجوداً من قبل. والخطأ الثاني الذي لا مفرّ منه هو تأسيس فلسفة سيكولوجية: ان كان الله شيئاً اصلاً، فلابد ان يكون وهماً مستمداً من دوافع، معينة، من الخوف، مثلاً، او من إرادة السيطرة، او من مكبوت الجنس. هذه الحجج ليست بالجديدة، فقد قال اشياء من هذا القبيل المرسلون

المسيحيون الـذين أطاحـوا بأصنام الآلهة الوثنية. لكن، بينما كان المـرسلون الأوائـل على علم بأنهم انمـا كانوا يخدمون إلهاً جديداً بالقضـاء على الآلهـة القديمة، يجهل الايقونيون الجدد الإله الذي يحـطمون القيم القديمة باسمه. لقد كان نيتشه واعياً تماماً وبالتالي مسؤولاً تمـامـاً عن كسـر الألواح القديمة، لكنه كان مع ذلك يشعر بحاجة غريبة لكي يشد ازر نفسه بالاعتماد على زرادشت يُبعث حيّاً، بما هو نوع من الشخصية الثانوية، نوع من أنيّة أخرى، كثيراً ما كان يُواحد نفسه بها في تراجيديّته العظيمة، «هكذا تكلم زرادشت». لم يكن نيتشه ملحداً، بل كان إلهه ميتاً. وكان من جرّاء ذلك ان انشطر نيتشه نفسه واضطر الى ان يسمي نفسه الأخرى «زرادشت»، او في أحيان أخرى، «ديونيسوس». وكان في مرض موته يوقع رسائله باسم «زغـروس»، وهـو ديونيسـوس اهـل تراقيا المقـطّع الأوصـال. تقوم تراجيدية زرادشت على أن نيتشـة، بعـد ان مات إلهه، قد اصبح هو نفسه إلهاً. وإنما حدث هذا لأنه لم يكن ملحداً. فقد كان ذا طبيعة إيجابية اكبـر من ان ترضى بإيمـان سلبي. ولعـل من الخطر على مثل هذا الإنسان ان يعلن عن موت الله، لأنه سرعان ما يقع ضحية «الانتفاخ» INFLATION. وبمـا ان فكرة الله تمثل قوة نفسية هامة، بل قاهرة، يكون من الأسلم، من بعض الأوجه، ان نؤمن بأن هذه القوة المستقلة هي «لا ـ أنيّة» NONEGO، ربما كينونة تختلف اختلافاً كلّياً عن البشر وتتفوق عليهم. والإنسان، في مواجهة هذا الإيمان، لا بد وأن يشعر أنه بات قريباً جداً من حجمه. لكنه حين يعلن عن موت «العظيم»، يتعين عليه فوراً ان يعرف اين اختفت هذه الطاقة العظيمة التي كانت

في وقت ما ممنوحة لوجود عظيم كعظمة وجود الله. فقد يعود الى الظهور تحت اسم آخر، قد يُسمّى «فوطان»، WOTAN، او «الدولة»، او مذهباً او ايديولوجية، او حتى إلحاداً، يؤمن به الناس ويعلقون عليه الآمال ويرجون منه نفس ما كانوا يأملون ويرجون من الله. وهو ان لم يظهر تحت ستار اسم جديد، انكفأ الى عقل الذي صدر عنه اعلان الوفاة او النعي. وبما أن المسألة مسألة طاقة هائلة، لسوف تكون النتيجة اضطراباً نفسياً هائلاً يتخذ شكل انفصام في الشخصية. ويقد ينتج عن هذا التمزق شخصية شفعيّة (مزدوجة) او متعددة. ويصبح الأمر كما لو ان شخصاً لم يعد قادراً بمفرده على حمل كل مقدار الطاقة فتنبري أجزاء الشخصية، التي كانت الى الآن وحدات تعمل متكاملة، فتدعي لنفسها، بعد ان تشتتت، ما للشخصيات المستقلة من منزلة وأهمية.

من حسن حظّ سائر البشرية، الأشخاصُ الذين لديهم من الحساسية والتدين مثل ما لدى نيتشه منهما ليسوا كثيرين. لو فقد امرؤ بليد الذهن فكرة الله، لم يحدث شيء ـ على الأقل ليس مباشرةً وشخصياً. لكن، اجتماعياً، ما تلبث الكتل البشرية حتى تربّي اوبئة عقلية، لدينا الآن منهم عدد وفير.

تعتبر الخبرة التي صاغتها المندلة مثالاً على الناس الذين لم يعد باستطاعتهم «إسقاط» الصورة الإلهية، وباتوا امام خطر فعلي من الانتفاخ والفصام ولذلك كان للأسيجة المستديرة والمربعة قيمة الأدوات السحريه، وهي بمثابة اسوار تقي من الانفجار والتفكك. وهكذا تكون المندلة دليلاً على تركيز اهتمام المريض بنفسه ليس إلا،

ودعماً لهذا الاهتمام. على ان هذه الحالة ابعد ما تكون عن الاستقطاب الأناني، بما هي مراقبة للنفس يحتاج اليها المريض ابتغاء تجنيبه الانتفاخ والفصام.

وان للسياج ايضاً معنى الـ«تيمونوس»، كما كان يسميه الاغريق؛ وهو فِناء المبعد او كل مكان مقدس منعزل. والدائرة، في هذه الحالة، تحمي وتعزل سياقاً يتجه الى الداخل من ان يختلط بأشياء الخارج. بذلك تكرر المندلة رمزياً طرائق ووسائل قديمة كانت فيما مضى حقائق حسية. وكما سبق ان ذكرت، كان الذي يسكن «التيمونوس» هو الله. لكن سجين المندلة او ساكنها المحصّن ليس إلهاً، من حيث ان الرموز المستخدمة كالنجوم والصلبان والكرات ليست إلهاً، بل حري بها ان تكون أهم جزء من الشخصية الإنسانية. ولعلّنا كدنا نقول ان الإنسان نفسه، او على الأقل روحه القابعة في العمق، كان هو سجين المندلة او ساكنها المحصّن. وبما المنادل الحديثة شديدة الشبه بالدوائر السحرية القديمة، كان إنسان المندلة الحديثة ـ الإنسان الكامل ـ هو الذي حل محل الألوهة.

ان ما يلفت النظر في هذا الاستبدال ـ حلول الإنسان محل الألوهة ـ انه يحدث عفوياً وطبيعياً، ودائماً بصورة غير شعورية بصفة اساسية. ولو اردنا ان نعرف ماذا يحدث لو أن الإنسان لم يعد يُسقط فكرة الله كينونةً مستقلة، لجاءنا الجواب من الخافية: تنتج الخافية فكرة جديدة عن الإنسان تحل محل الله، إنسان مؤله او إلهي، سجين، خبيء، محصّن، مجرّد من بشريّته؛ يُعبَّر عنه عادةً بالرمزية

المجردة. وغالباً ما تشير الرموز الى مفهوم العصر الوسيط عن العالم الأصغر والعالم الأكبر، مثلما هي عليه الحال في مزولة مريضنا، مثلاً.

كذلك ان ما يلفت النظر ان كثيراً من السياقات التي تؤدي الى المندلة، ولا سيما هذه الأخيرة، تبدو وكأنها اثبات مباشر لأفكار العصر الوسيط، وكأن الناس كانوا قرؤوا التصانيف القديمة عن «حجر الفلاسفة»، و«الماء الدائم» و«الماء الإلهي»، وعن الاستدارة والتربيع والألوان الأربعة، الخ. ومع ذلك لم يكونوا قط في مكان قريب من الفلسفة السيمياوية ورمزيتها العويصة.

من الصعب ان نعطي هذه الوقائع حقها من التقدير. اذ ربما فسّرناها انكفاءً الى طرائق التفكير القديمة، ان كانت اعتباراتنا الرئيسية منصبة فقط على موازاتها البيّنة والبارزة مع رمزية العصر الوسيط. لكن، حيثما تكن المسألة انكفاء الى طريقة قديمة، تكن النتيجة ليست مثالاً على هذه التطورات، بل ان حالات المعصوبين والمفصومين تتحسّن تحسّناً كبيراً وتتغير الشخصية كلها الى الأفضل. فالتكيف تحسّن، وليس منه ضرر في كل الأحوال. لهذه الأسباب ارى الاّ نفسر هذا السياق انكفاء الى طرائق التفكير القديمة، وإنما اميل الى تفسيره استمراراً صحيحاً لسياق سيكولوجي بدأ مع بداية القرون الوسطى، بل ربما يرجع الى ما قبل ذلك، الى أزمنة المسيحية الأولى. ثمة دليل وثائقي على ان الرموز الأساسية كانت موجودة في القرن الأول. انا اتكلم هنا عن أثر إغريقي كتبه «كوماريوس» الذي علّم كليوباترا الفن الإلهي. لا شك ان النص وثني ومصري الأصل. كذلك توجد نصوص مستطيقية (صوفية) وضعها «زوسيموس»، وهو

غنـوصي من القـرن الثـالث. غير أن التـأثيرات اليهودية والمسيحية ملحـوظة فيه، وإن كانت الرمزية الأساسية وثنية بشكل واضح وذات صلة وثيقة بالفلسفة الهرمزية.

أنْ تكون رمزية المندلة متأثرة من مصادر وثنية سبقتها، إنّ هذا يلقي ضوءاً خاصاً على طروءاتها السيكولوجية الحديثة ظاهرياً. فهي تبدو وكأنها تكمل اتجاهاً فكرياً غنوصياً بدون ان يدعمه تقليد مباشر. ان صح ظني بأن كل ديانة هي تعبير عفوي عن ظرف سيكولوجي معين كان سائـداً في وقت نشوئها، فإن المسيحية هي صياغة لظرف كان سائداً في هذا العهد الذي بدأ بها، وظلت صالحة لكثير من القرون التالية. لكنها عبرت عن ظرف واحد من الظروف التي كانت سائدة آنئذٍ، وهو ظرف لا يستبعد وجود ظروف أخرى يمكنها، هي ايضاً، ان تعبر عن نفسها في صيغة دينية. فقد كان على المسيحية ان تكافح الغنوصية فترة من الزمن لكي تضمن المسيحية لنفسها البقاء؛ اذ كانت الغنوصية، الى حد ما بلغه علمنا، ظرفاً آخر يكاد ان يساوي سابق الظرف «المسيحي». فكان ان تمّ القضاء على الغنوصية قضاء مبرماً، وتعـرضت بقاياها الى تشويه فظيع بتنا نحتاج معه الى دراسة خاصة لكي ننفذ، ان تيسر لنا ذلك، الى معناها الداخلي. لكن، ان كانت جذور رموزنا التاريخية تمتد الى ما وراء القرون الوسطى، فإنّها موجودة في الغنوصية قطعاً.

ليس من غير المنطقي ابداً، كما ينبغي لنا ان نسلّم، ان يعود ظرف سيكولوجي، كان مكبوحاً في وقت ما، الى إثبات نفسه اذا بدأت الأفكـار الـرئيسية من الشرط الكابح بالانكفاء. فبالرغم مما اصاب

الهرطقة الغنوصية من كبح على يد المسيحية، ظلت باقية طوال العصور الوسطى تحت ستار السيمياء. والمعروف ان هذه الأخيرة مؤلفة من جزءين لا غنى لأحدهما عن الآخر، احدهما البحث الكيمياوي بالمعنى المخصوص، والثاني «نظري» او، «فلسفي». وقد سار الجزءان جنباً الى جنب في بداية العهد المسيحي. فقد كانت الأفكار الدينية او الفلسفية التي اشتملت عليها السيمياء افكاراً غنوصية بصورة واضحة. ويبدو ان الأفكار المتأخرة اخذت تتجمع حول فكرة غريبة وغامضة. ولعلنا نستطيع صياغتها على النحو التالي: روح العالم، الخالق او الروح الإلهي الذي يحضن مياه البدء العمائية، بقي في المادة وجوداً بالقوة، وبقيت معه حالة العماء الأولي. ولذلك اعتقد الفلاسفة، او «ابناء الحكمة» كما كانوا يسمون انفسهم، ان المادة الأولية جزء من العماء الأصلي «الحبلان» بالروح. وكانوا يريدون بالروح «نفساً» شبه مادية، او نوعاً من «الجسم اللطيف» الذي كانوا يسمونه ايضاً «الطيّار»، يتواحد كيماوياً مع الأحماض وغيرها من المركبات القابلة للانحلال. وكانوا يسمون الروح بـ«عطارد»، وهو الزئبق كيماوياً، وهرمز فلسفياً، إله الوحي الذي كان، بما هو موصوف بهرمز المثلث العظمات، المرجع الأعلى في السيمياء. وكانوا يرومون استخلاص الروح الإلهي الأصلي من العماء، وكانت هذه الخلاصة تدعى «الجوهر» او الماء الدائم. وكان احد مشاهير علماء السيمياء في القرن الرابع عشر، وهو جوهانس روبيشيسّا (١٣٧٨) يسمي هذا الجوهر بـ«السماء البشرية»، او السماء. وعنده ان هذا الجوهر سائل ازرق لا يتطرق اليه فساد كالسماء. وكان يقول ان لون هذا الجوهر

كلون السماء» وقد زيّنته شمسنا كما تزين الشمس السماء. والشمس رمز الذهب. يقول: «الشمس ذهب حقيقي». ثم يمضي قائلاً: «هذان الشيئان يقترنان معاً. تؤثر فينا... احوال سماء السموات، والشمس السماوية». واضح ان فكرته تذهب الى ان الجوهر، او السماء الزرقاء والشمس التي فيها، يُحدث صور الجنة وشمس الجنة في نفوسنا. هذه هي صورة العالم الأصغر والأزرق والذهبي التي ارى فيها موازياً مباشراً للرؤية السماوية التي رآها «غيوم» غير ان الألوان مقلوبة عند هذا الأخير، بينما عند روبيشيسا القرص ذهبي والسماء زرقاء. ولذلك يبدو ان مريضنا، الذي كان عنده ترتيب مشابه، كان اميل الى الجانب السيماوي.

السائل العجيب، او الماء الإلهي، سواء اسميناه سماء او جنة، ربما يشير الى «الجَلَد» المذكور في سفر التكوين ١ : ٦. وكان يُعتقد، في جانبه الوظيفي، انه نوع من ماء المعمودية، كالماء المقدس في الكنيسة الذي يتمتع بصفة خالقة ومغيرة. وما زالت الكنيسة الكاثوليكية تؤدي طقس «الجرن المقدس» في يوم السبت المقدس الذي يسبق الفصح. ويتكون الطقس من نزول الروح القدس في الماء. وبذلك يكتسب الماء الطبيعي الصفة الإلهية القادرة على تغيير الإنسان ومنحه هبة الولادة الروحية الجديدة. هذه هي بالضبط فكرة اهل السيمياء عن الماء الإلهي، ولعلنا لا نجد صعوبة ابداً اذا ذهبنا الى القول ان الماء الدائم في السيمياء مستمد من طقس «الجرن المقدس»، لولا ان الأول من اصل وثني وهو أقدم الاثنين قطعاً.

واننا لنجد الماء العجيب في اول التصانيف الاغريقية في

السيمياء التي ترجع الى القرن الأول. ثم ان نزول الروح القدس في الطبيعة PHISIS اسطورة غنوصية كان لها اعظم التأثير على «ماني». وربما اصبحت احدى الأفكار الرئيسية في السيمياء اللاتينية من خلال تأثيرات مانوية. وكان قصد الفلاسفة من ذلك تحويل المادة الخسيسة كيمياوياً الى ذهب او ترياق او اكسير الحياة، وفلسفياً او مستطيقياً تحويل الإنسان الى الإنسان الكامل، «هرْمافروديتوس»، او آدم الثاني، او جسد الانبعاث الذي لا يبلى، او نور الأنوار، او نور العقل البشري. ولقد بيّنت، في عمل مشترك مع ريتشارد ولهلهم، ان السيمياء الصينية جاءت بنفس الفكرة بأن الغاية من «العمل العظيم» هو خلق «الجسد الألماسي».

وإنما سقت جميع هذه التفاصيل لكي اضع ملاحظاتي السيكولوجية في سياقها التاريخي؛ بدون ارتباطها بالتاريخ، تبقى معلقة في الهواء، مجرد تحفة. وكما بيّنت من قبل، ان ارتباطات الرمزية الحديثة بالنظريات والاعتقادات القديمة لا يقوم على الرواية العادية او النقل المباشر وغير المباشر، ولا حتى على المُسارّة كما قد يُفتَرَض غالباً. لم يسفر البحث الدقيق عن احتمال اطلاع المرضى على كتب او حصولهم على معلومات لها علاقة بهذه الأفكار. وإنما يبدو ان خافيتهم قد عملت على نفس الخط الفكري الذي ظل يكشف عن نفسه، بين حين وآخر، في الألفين من السنين الماضية. لا يمكن ان توجد مثل هذه الاستمرارية الا ان نفترض حالة معينة من الخافية تنتقل بالوراثة البيولوجية. طبعاً لا أريد بهذا الافتراض وراثة الصور بما هي كذلك، التي من الصعب بل من المستحيل البرهان عليها. وانما

اتخيّل ان الصفة الموروثة لا بد ان تكون شيئاً من قبيل امكانية إعادة توليد نفس الأفكـار، او افكـار مماثلة على الأقل. وقد سمّيت هذه الإمكانية «نموذجاً بدئياً»، ARCHTYPE ، وأريد بذلك سابق استعداد عقلي وخصيصة وظيفية في الدماغ.

في ضوء هذه الموازيات التاريخية تكون المندلة إما رمزاً للكائن الإلهي الذي لم يزل هاجعاً في الجسد وهو الآن يُنتشل منه وتعاد له الحياة، وإما رمزاً للوعاء او الحُجْرة التي يجري فيها تحويل الإنسان الى كائن إلهي.

انـا اعلم ان هذه الافكـار لا بد وأن تذكرنا بأفكار ميتافيزيقية غريبـة. لكن يؤسفني ان هذه الأفكـار هي بالضبط ما ينتجـه العقل البشري وهي ما قد أنتجه دائماً. وكل سيكولوجيا تزعم ان في قدرتها ان تصرف النظر عن هذه الوقائع فإنما تفعل ذلك بطريقة مصطنعة. وإني لأسمي هذا تحيزاً فلسفياً غير مقبـول من المنطلق التجريبي. وربما كان لا بد لي من التشديد على أهمية القول بأننا لا نشيّد حقيقة ميتـافيزيقية من خلال هذه الأفكار؛ فهي مجرد إبانة تفيد بأن العقل يعمل بهذه الطريقة. لكن الحقيقة التي يجب علينا الا نغفلها هي ان مريضنا قد شعر بتحسن كبير بعد رؤية المندلة. ولو فهمتم المشكلة التي حُلّتْ له، لاستطعتم ان تفهموا ايضاً لماذا شعر مريضنا بـ«أسمى حالات الانسجام».

لن أتردد لحظة عن كبح جميع الأفكار المتعلقة بالآثار الممكنة التي تنتج عن خبرة فيها من الغموض والبعد مثل ما في خبرة المندلة، لو كان ذلك ممكناً. لكن، لسوء الحظ، كان هذا النوع من الخبرة

خالياً من الغموض مثلما كان خالياً من البعد؛ بل ليكاد ان يكون همّاً يومياً في عملي. اعرف من الناس عدداً لا بأس به يتعيّن عليهم أن يأخذوا خبرتهم على محمل الجد إن كان لهم ان يعيشوا اصلاً. ليس عليهم غير الاختيار بين الشيطان والبحر العميق. الشيطان هو المندلة او شيء من هذا القبيل، والبحر العميق هو العصاب. الشيطان، على الأقل، فيه شيء من البطولة، وأما البحر فموت روحيّ. سوف يقول العقلاني الملتزم انني اطرد الشيطان بواسطة «بعلزبوب»، وأجِلّ خداع معتقد ديني محلّ عصاب لا غشّ فيه. بالنسبة للأول ليس عندي شيء اجيب به، لأنني غير خبير بالميتافيزيقا، وأما بالنسبة للثاني فلا بدّ لي من ان ابين ان المسألة ليست مسألة معتقد بل مسألة خبرة. الخبرة الدينية خبرة مطلقة لا يُنازَع فيها. كل ما تستطيع قوله بشأنها انك لم تختبر قط مثل هذه الخبرة، فيقول لك مناظرك: «آسف.. انا اختبرت»، وعندئذٍ تنتهي المناقشة. بصرف النظر عما يقوله الناس في الخبرة الدينية، الإنسان الذي يختبرها يمتلك كنزاً من شيء يمدّه بينبوع من الحياة والمعنى والجمال ويخلع على العالم والبشرية رونقاً جديداً. لقد أضحى يمتلك الآن إيماناً وسلاماً. اين هو ذلك المعيار الذي يستطيع ان يقول المرء بموجبه ان هذه الحياة غير مشروعة، او ان هذه الخبرة غير صحيحة، او ان هذا الإيمان وهم ليس إلا؟ هل ثمة حقيقة عن الأشياء النهائية خير من الحقيقة التي تعينك على الحياة؟ هذا هو السبب الذي يجعلني آخذ بالاعتبار الشديد الرموز التي تطلقها الخافية. فهي الأشياء الوحيدة القادرة على إقناع العقل النقّاد في الإنسان الحديث. وهي مقنعة لأسباب بَطُل زيّها لاعتمادها

على القهر ليس إلا. فالشيء الذي يشفي من العصاب لا بد وأن يكون «قهّاراً» كالعصاب؛ وبما ان العصاب واقعي جداً، فلا بد ان تكون الخبرة المسعفة واقعية ايضاً، ولا بد ان تكون وهماً واقعياً جداً، ان اردت ان تعبر عن ذلك تشاؤمياً. لكن ما الفرق بين وهم واقعي وخبرة دينية شافية؟ فرق في الكلمات ليس إلا. مثلاً، تستطيع ان تقول ان الحياة مرض ذو مستقبل رديء جداً، يبقى سنوات لكي ينتهي بالموت؛ او ان الحالة السويّة عيب تكويني سائد عموماً؛ او ان الإنسان حيوان بلغ عنده نمو العقل الى حد قاتل. هذا النوع من التفكير امتياز يتمتع به المتذمرون العاديون الذين يشكون من سوء الهضم. لا احد يعلم ما هي الأشياء النهائية. لذلك يجب علينا ان نأخذها كما نختبرها. واذا اعانتك هذه الخبرة على جعل حياتك صحية اكثر، وجميلة اكثر، وكاملة اكثر، وأرْبَح لك ولمن تحب، تستطيع ان تقول وأنت في مأمن من الغلط: «لقد كان هذا فضلاً من الله».

الـفـــهرس

الفصل	الصفحة
مقدمة المترجم	٥
استقلالية الخافية	٩
الدغماطيقا والرموز الطبيعية	٤٤
رمز طبيعي : تاريخ وسيكولوجية	٨٠

فيما يتعلق بالدين، هناك اتجاهان رئيسيان في عالم اليوم المليء بالقلق والشكوك: اتجاه الذين يتصرون للديانة المستمدة من الوحي ويلتمسون العزاء عن وقائع الخيبة والفواجع التي حلت وتحل بالعالم، ويقولون ان تجديد الايمان بالدين القويم خليق بان يعيد البشرية إلى طريق الحياة الامين. واتجاه الذين يرون ضرورة القضاء على الدين كما فهمناه حتى الآن، ويلتمسون في العقل وحده خلاص الانسان وتقرير مصيره.

وبين هاتين النهايتين القصويين، اي الايمان التقليدي والعقلانية الجامدة نجد موقعاً وسطاً يحتله الذين تجاوزوا الموقف التقليدي الدوغمائي في الدين ولكنهم لم ينفوا ما في الموقف الديني من قيمة أساسية في الحياة تماثل ما في العلم من اصالة وصحة. إلى هؤلاء يتحدث «يونغ» بلغة مقنعة، ويعطينا المفاتيح التي تفتح لنا مغاليق الطبيعة والوظائف النفسية التي يتلهف الانسان الحديث شوقاً ان يمسك بها. ووجهة النظر التي يطرحها امامنا تشكل تحدياً للروح وتستثير تجاوباً فعالاً عند كل من يشعر في نفسه بما يحضه على النمو إلى ما يتجاوز موروثه ولا يلغيه.

العربي للطباعة والنشر والتوزيع

السـ ٤٥٠٠ ل